THE LIBRARIES

COLUMBIA UNIVERSITY

GENERAL LIBRARY

فلسطين العربية

في ماضيها وحاضرها ومستقبلها

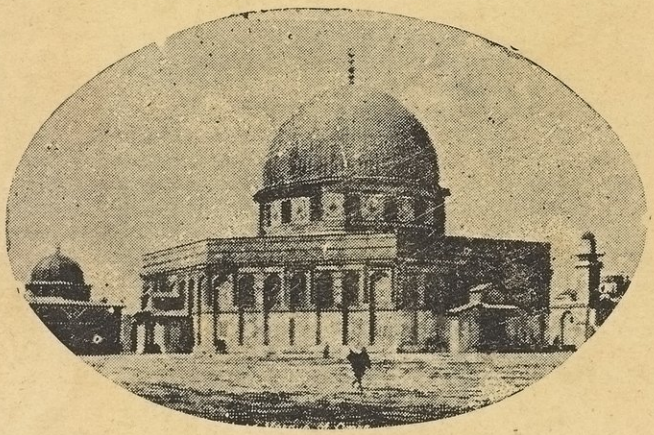

تأليف
وديع تلحوق

اصدرته ادارة مجلة « العالمان » سنة ١٩٤٥ — ثمن النسخة ٥ ليرات سورية

فلسطين العربية

في ماضيها وحاضرها ومستقبلها

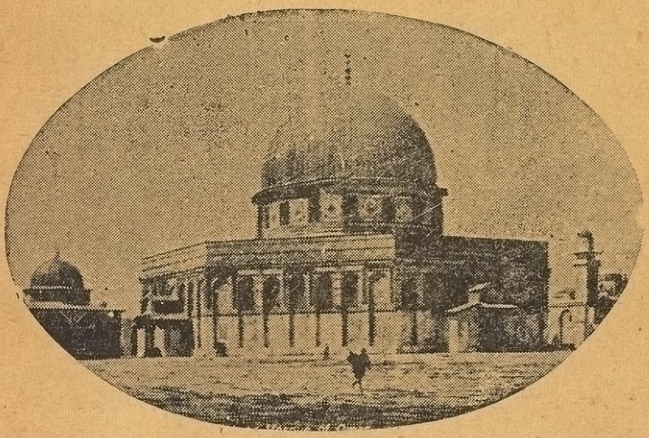

تأليف
وديع تلحوق

اصدرته ادارة مجلة « العالمان » — سنة ١٩٤٥

DS
126
.T3

الاهداء

الى مواكب الشهداء العرب . . .

الذين فاضت ارواحهم تحت رايات الفتح ، او الوية النضال التحريري او على اعواد المشانق وغياهب السجون ، في سبيل سيادة العرب وحريتهم .

والى الجيل العربي الجديد . . .

الذي يسعى لبعث المجد العربي التالد ، وليروي شجرة الحرية بآخر سيل من الدم العربي الزكي .

والى اصحاب الجلالة والسمو والفخامة

ملوك العرب ، وامرائهم ، ورؤساء دولهم ، الذين يدافعون عن ذمار الوطن العربي ، ويسعون حثيثاً لتوحيد شمل الامة العربية

اهدى هذا الكتاب

المؤلف

مقدمة

قضية فلسطين الشهيدة المنكودة ، هي قضية كل عربي مناضل في سبيل الحرية ، مدافع عن كيانه القومي ، وحقه الطبيعي في هذا الوجود .

وهي الجرح الدامي العميق الذي كان في صميم القضية العربية العامة ، يجيش بالألم المبرح ، ويسيل دماً زكياً يزداد مع تمادي الايام . كما أنها اليوم هي محور القضية العربية الأساسي ، والمحك الصحيح لما يهيأ للأمة العربية بأسرها من المصائر في العالم الجديد .

وليست اصول هذه القضية وفروعها ، بخافية على احد من ابناء العروبة المجاهدين الذين ملأوا الدنيا صخباً واحتجاجاً على ما لحق العرب من الغبن فيها ، وما يتهددهم من الخطر الدائم عن طريقها . كما بذلوا في سبيل صيانة عروبة فلسطين الغالية آلاف المهج والارواح ، في اندفاعات قومية جبارة متتالية ، سجلها التاريخ الجديد في عداد ما يسجله من صفحات البطولة والتفاني في سبيل الحرية .

لكن الواقع ان هذه القضية لا تزال مثار قلق عظيم يساور نفوس العرب في مشارق الارض ومغاربها ، ومصدر خطر جسيم يهدد كيانهم القومي ، في الوقت الذي تستبشر شعوب الأرض الصغيرة باسترجاع حقوقها القومية ، وبناء كيانها ، والتمتع بأوفى عناصر السيادة والحرية في العالم الجديد . كل ذلك بسبب ما تبديه الحركة الصهيونية الجانية من التمادي في الباطل ، والنشاط في تزييف الحق ، والافتنان بأساليب الدعايات المموهة التي تسعى الى تضليل الرأي العام الدولي ، واعطائه صورة عن القضية الفلسطينية ، مغايرة للواقع ، ومنسوجة خيوطها من احلام الصهيونية وأباطيلها .

لذلك كان حتما على العرب ان يهبوا للدفاع عن حقهم السليب بالحجة والبرهان ، في هذا المعترك السياسي . وان ينبروا لتفنيد مزاعم الصهيونيين الباطلة بالأدلة

التاريخية والوثائق الحقوقية . وأن يظهروا في ميدان النزاع الفكري اليوم وغداً ، من التمسك بحقهم والتفاني في سبيل صيانته ، ما اظهروه بالأمس في ميدان الصراع الدموي العنيف .

ولما كانت « العالمان » قد نشأت للمساهمة في ميدان النضال التحريري ، واداء الرسالة القومية ، لذا يسرها ان تقدم للقراء الاكارم هـذا الاثر ـ المتواضع بحجمه بحكم الظروف الراهنة ـ الذي يتضمن عرضاً وافياً للقضيـة الفلسطينية في مختلف نواحيها ، واثباتاً اكيداً لحقوق العرب فيها ، ودفاعاً علمياً صحيحاً عن وجهة النظر العربية ومطاليب العرب في هذه الدعوى الحقوقية الدولية .

ولقد عمد مؤلف هذا الكتاب ، الاستـاذ وديع تلحوق ، الذي رافق سـير الحركات التحريرية الحديثة عن كثب ، الى عرض هـذا البحث باسلوب علمي ، وبلغة العقل المجردة ، لا بالأسلوب العاطفي فقط : بل جعل هذه الرسالة اقرب الى الدفاع الحقوقي الدولي ، منها الى النداء القومي العاطفي .

فعسى ان يقع عملنا هذا في نفوس القراء الكرام موقعاً حسناً ؛ وعسى ان تتمكن الامة العربية من اسماع صوتها القومي في الدفاع عن فلسطين خاصة ، والقضية العربية عامة ، ليرن صداه القوي الحق في الاندية الدولية العليـا ، التي تهيء منذ منذ اليوم الخطوط الاساسية لتنظيم عالم الغد ؛ والله من وراء القصد .

« العالمان »

تمهيد

كانت القضية الفلسطينية منذ الحرب العالمية الاولى — ولا تزال حتى اليوم — عقدة العقد في معالجة القضية العربية الكبرى ؛ ومثار القلق والاضطراب في جميع الاقطار الناطقة بالضاد ، وموضوع استفزاز للرأي العام العربي في كل آن ومكان

ولم تبق هذه القضية مرتدية الطابع المحلي الفلسطيني ، او القومي العربي فقط. بل اصبحت من المواضيع التي يهتم بها الرأى العام الدولي ، من قبل هـذه الحرب الضارية واثناءها . وفتحت مجالا للدعايات المتنوعة ، والتزلف الذي اخذ يتقرب بواسطته كل ذوي المصالح الدولية في الشرق الاوسط ، الى احد الفريقين المتنازعين.

ومما هو جدير بالذكر ان هذه القضية استعادت نشاطها العظيم خـلال الحرب الحاضرة ، وبلغت ذروة الاهمية والخطورة من جديد في الاونة الاخـيرة . وسبب ذلك ان اليهود استغلوا ظروف هذه الحرب — كما استغلوا ظروف الحرب الماضية — فراحوا يضاعفون نشاطهم العالمي في سبيل الحصول على مواثيق دولية جديدة تكون اقوى واوضح ممـا حصلوا عليه من قبل ؛ بغية تثبيت دعواهم الباطـلة في ملكية فلسطين .

كما ان قضية الوحدة العربية قد بعثت من جديد في هذه الحرب ايضا . فأصبح ذلك الحلم الذهبي الذي تراءى لمؤسس النهضة الاول ، المغفور له الملك حسين بن علي ، والذي بكينا دماً لضياعه وتلاشيه بالامس ، يبدو حقيقة مجسمة امام نواظر العرب اليوم ، واملا قوياً واضحاً تسعى جميع الدول العربية لاتمامه وتحقيقه .ومن البديهي ان مثل هذا الامر يبعث القضية الفلسطينية من جديد ايضا .

وهناك من العوامل الدولية ما ساعد على اثارة هذه المشكلة الهامة بنفس الوقت. واهم هذه العوامل ، ذلك الموقف الحازم الذي اتخذته السلطات البريطانيـة ازاء القضية الفلسطينية . مما اثبت لليهود ان سياستهم الخرقاء لن تجـارى بعد اليوم ،

ومطامعهم الاشعبية لن تنال العطف والمساعدة ليحولوا الحق باطلا . وكان موعد انتهاء مدة الكتاب الابيض محكا صريحا لهذا . اذ بالرغم من ان السلطات البريطانية لم تسارع لتنفيذ بنوده كلها بسبب ظروف الحرب ، لكنه لم يظهر في مجرى السياسة الانكليزية في فلسطين او لندن ، اي دليل يشير الى عزم الحكومة البريطانيـة على التهاون بامر هذا الكتاب او العدول عنه . ولقد كان ذلك باعثـا لدى اليهود على خلق موجة من الاجرام او الاعتداءات الزنيمة في فلسطين ؛ بدأت خـلال شهر آذار الماضي — وهو ميعاد تنفيذ الكتاب الابيض بالضبط — ولا تزال مستمرة حـتى الوقت الحاضر ، مما لا يخفى امره على احد .

ولعل من جملة العوامل السياسية والدولية في اثارة قضية فلسطين خلال هـذه الاونة الحرجة ايضا ، زج حكومة الولايات المتحدة بنفسها في هذا المأزق الحرج وانخداعها بالدعاية الصهيونية ، وتبنيها فكرة المطالبة بفتح باب الهجرة اليهودية الى فلسطين على مصراعيه ، وما رافق ذلك من بيانات وتصريحات وادعاآت ، اقامت العالم العربي واقعدته ؛ وكانت السبب المباشر في اثارة سخط العرب من جديد .

وليس لنا الان ان نبدي رأياً مفصلا في هذه العوامل ، لاننا سنتناولها كلهـا في حينها . لكن لا بد من القول ان قضية فلسطين هي بطبيعتها جديرة ان توضع على بساط البحث اليوم . لان هذه الحرب الطاحنة التي يكتوي العالم بلظاها من اقصاه الى اقصاه ، ستخرج به الى دنيا جديدة من السلام والحرية والعدالة والرخاء توضع اسسها القويمة اليوم وراء لهب الحرائق المتأججة ؛ وخضم المعارك الطاحنة . ولان الامم المتحدة التي وحدت بينها الام الحرب وويلاتها ، تبدو حريصـة على الاحتفاظ بوحدتها وتعاونها بعد هذه الحرب ايضا . فهي تسعى منذ الان — ضمن هذه الرابطة المتينة — لحل معظم القضايا الدولية المعقـدة ؛ سيان كانت موروثة من آثار الحرب العالمية الاولى ، او كانت ناشئة عن الحرب العالمية الراهنة . وغرضها في ذلك التمهيد للسلام العالمي الشامل الدائم ؛ وعـدم التفريط بحمايته وضمانته ، وانشاء عالم جديد حر في ظل هذا السلام يخلو من الضغائن الدولية والاحقاد القومية

فحري بالقضية الفلسطينية في مثل هذه الحال ، ان تنال نصيبها من الاهتمام ، وان تحل طلاسمها ورموزها اليوم . كما ان من واجب العرب المقدس ، ان يغتنموا هذه الفرصة السانحة فورا لاثبات حقهم القومي والدفاع عنه ، على نحو ما فعل اليهود ، وكما يفعلون في كل حين .

ماهية القضية الفلسطينية

اذا أردنا ان نعرف ماهية القضية الفلسطينية ، ونتبين مداها وحدودها، وشكلها بالنسبة الى الحقوق الدولية ، نجد انفسنا امام بدعة سياسية لم يعرف لها مثيل من قبل في التاريخ . ونتبين انها قضية خلقت من العدم ، وقامت على الوهم. فهي العوبة زائفة ترمي الى تحويل الباطل حقا ، واحبولة من احابيل اليهودية العالمية التي لا تخفي اسبابها ووسائلها ، وان خفيت حقيقة اغراضها ومراميها .

ليست القضية خلافا على حدود بين بلدين متجاورين. ولا هي نزاع بين دولتين على ضم ولاية اختلط فيها السكان من رعايا الفريقين . حتى ولا هي تنافس بين امبراطوريتين على امتلاك مستعمرة بعيدة او قريبة .

كلا ! ليست قضية فلسطين على غرار واحدة من هذه القضايا التي كثر حصولها بين دول الارض وشعوبها . بل هي بدعة سياسية ، وفرية دولية ، واعتداء قومي وانساني في وقت واحد . فهي محاولة اغتصاب بقعة اساسية من صميم وطن كبير لتحويلها الى « وطن » جديد مزعوم ، لا يمكن له ان يقوم على شيء من الاسس الصحيحة والمؤهلات الواقعية . ومسعى لطرد شعب آمن هادىء عريق بالحضارة ، من وطن مر عليه فيه مئات الاجيال ، وغذاه بدماء شهدائه ، واجساد ابنائه ، اكثر مما تغذى من مائه وتربته ، وهوائه . وبرنامج لحشد شذاذ من مختلف آفاق الارض ، لينشأ لهم وطن مصطنع على رفاة الوطن الاصيل الصحيح ، ويؤلف منهم شعب مخلوق على اشلاء الشعب السابق . فكيف يمكن لمثل هذه القضية ان يقرها عقل ، او يقبلها وجدان ، او يقول بصحتها قانون !!

هذه فلسطين !..

هي عربية بأهلها ، وموقعها الجغرافي ، وتاريخها القديم والحديث . وهي جزء لا يتجزأ من الوطن العربي الكبير. تقع في صميمه وسويداء . وتؤلف حلقة رئيسية

للاتصال بين مختلف اجزائه . فلا مجال لمنازعة عروبتها بوجه من الوجوه ، ولا غنى للوطن العربي عن هذا الجزء الحيوي بحال من الاحوال .

وهذه دعوى الصهيونيين الباطلة !..

لقد رأوا أنفسهم منتشرين في جميع بقاع الارض . وابت عليهم انانيتهم اليهودية الجشعة ان يعتنقوا الفكرة الوطنية حيثما حلوا في اي وطن . فهم يعتقدون انهم عرضة للتشريد والاضطهاد في كل حين . لذلك يريدون ان يقيموا لهم « وطنا قوميا » في العالم على حد زعمهم . وقد اختاروا فلسطين لتكون ذلك الوطن القومي ؛ بدعوى انها مهد ملكهم الاول . وفي سبيل هذا راحوا يسعون لتحويل فلسطين الى دولة يهودية ، وامتلاك ارضها شبراً شبرا ؛ وتشريد ابنائها الاصليين من العرب ، واقتطاعها من جسم الوطن العربي بصورة تامة ونهائية .

* * *

ولو كان اليهود الذين تبنوا هذه الدعوى رعية دولة واحدة ، او ينتسبون الى صنف واحد في اي معنى من المعاني ، لوضح الامر بعض الشيء . لكنها اعتبرت دعوى كل يهودي في العالم ، مهما كانت جنسيته او تابعيته ، وسيان كان مشرداً مضطهدا يطلب ملجأ ؛ او آمنا مستقراً لا منازع له في وطنه الاول .

لذلك اصبحت هذه القضية موضوع نزاع بين العرب واليهود بصورة عامة . ثم لما كانت اليهودية دينا اكثر مما هي قومية . وكانت آثار اليهود الدينية القديمة في فلسطين من اهم ما يتشبثون به لاثبات دعواهم الباطلة ، ولاستفزاز شعور ابناء مذهبهم بواسطتها ، وكانت فلسطين اولى القبلتين وثالث الحرمين ، تحتوي على كثير من الاماكن الاسلامية المقدسة ، لذلك راح العالم الاسلامي باسره يظاهر العرب ايضا في الدفاع عن عروبة فلسطين ، فازداد نطاق هذه القضية الدولية اتساعا ، كما ازداد عدد اصحاب المصلحة فيها ايضا .

ولم تبق المسألة محصورة ضمن هذا المدى فحسب . بل امتدت الى آفاق دولية جديدة . ذلك لان البلاد العربية برمتها كانت عندما اثار اليهود قضية فلسطين من قبل الحرب الماضية ، تابعة للامبراطورية العثمانية المتداعيه ، او بالاحرى تؤلف قسما من تركة « الرجل المريض » التي تتنازعها مطامع الدول الاوربية . كما ان

اليهود من جهتهم ايضا — بما عرف عنهم من الجبانة والضعف — لا يستطيعون ان يثيروا بانفسهم مثل هذه المشكلة المعقدة الصعبة ، ويحركوا هذا البركان الخطر دون ان يستندوا الى ضمانة احدى الدول الكبرى لحمايتهم وتأمين سلامتهم .

لذلك لم يكن بدا من ان تدخل قضية فلسطين ضمن نطاق القضايا الدولية المتعددة ، التي تضاربت فيها المصالح والاراء في الحرب الماضية . وان يصدر بشأنها بيانات ومواعيد ، وتعقد لها اتفاقات اولية ، ثم ان تكون في عداد المواضيع التي طرحت على بساط البحث خلال مؤتمرات الصلح الماضية .

وشاءت المقادير ان يميل اليهود الى الحكومة البريطانية في سبيل تحقيق مشروعهم هذا ، كما استند العرب الى بريطانيا ايضا في السعي لتحقيق قضيتهم القومية . فتصدر العهود المعطاة للمغفور له الملك حسين ، مع وعد بلفور المشؤوم في وقت واحد تقريبا ، وعن سلطة واحدة ؛ فتصبح انكلترا بذلك شخصا ثالثا رئيسيا في قضية فلسطين .

وتأبى الملابسات والمناورات الصهيونية ، الا أن تزيد الموضوع تعقدا وتشابكا واتساعا . فبعد أن وجد اليهود ان الحكومة البريطانية غير مستعدة لان تضحي بعروبة فلسطين ، ثم بكيان الوطن العربي الاكبر ، في سبيل ارضاء انانيتهم الجشعة ومجاراتهم في مطامعهم الاشعبية ، ورأوا ان السلطات البريطانية قررت ان تضع لهذه المعضلة حداً معقولا — بالنسبة للواقع الحالي — في الكتاب الابيض الذي وضع في شهر آذار عام ١٩٣٩ ، وتقف بحزم للدفاع عن فكرتها هذه ، تحولوا الى حكومة كبرى جديدة ، ليزجوا بها في هذا المعترك . وكانت هذه الحكومة هي الولايات المتحدة ، التي وقف نفر كبير من رجالها يتبنى السياسة الصهيونية دون تدبر او تبصر ، وبغير تعمق في بواطن الامور ودخائلها .

هذه هي ماهية القضية الفلسطينية اذن . وهذا هو مداها ونطاقها الدولي . فهل تبين العرب اي موقف يقفون ؟ واي معترك يخوضون ؟ وهل عرفوا اي سبيل يجب عليهم ان يسلكوا في سبيل صيانة حقهم والحرص عليه ؟

ان الموقف خطير ، والساعات حاسمة . فعلينا ان نعرف ماهية قضيتنا وحدودها وان نحشد جميع قوانا للدفاع عنها بالطرق المجدية الفعالة ، لا بواسطة الاندفاعات العاطفية . وهذا ما ندعو اليه في هذه الرسالة .

الحركة الصهيونية

نشأتها - تطورها - اهدافها

يجدر بنا قبل ان نستعرض تطور القضية الفلسطينية السياسي ، ونفند مزاعم الصهيونيين الباطلة فيما يتعلق بأسطورة « الوطن القومي » ، ان ندرس هذه الفكرة ونشأتها . وكيفية تطورها ونموها .

من المعلوم أن لليهود تاريخاً قديماً في فلسطين . وأنهم انشأوا هناك — في حقبة من الزمن — مملكة يهودية ، ما لبثت ان انهارت ودرست آثارها ، وذلك بسبب انقساماتهم الداخلية من جهة ؛ ثم بسبب تعرضهم للغزوات والفتوحات الخارجية من جهة اخرى . هذا مع وجوب العلم والاستدراك دائماً ، أن اليهود لم يكونوا هم أول شعب استوطن فلسطين ، وأنشأ ملكا فيها .

وعندما تهدم ملكهم المشار اليه ، وأخرجوا من فلسطين لآخر مرة ، وضع لهم أحبارهم ورؤساؤهم الدينيون حلماً ذهبياً يتعللون به ، وهو أنه لا بد لهم من العودة الى فلسطين مرة ثانية ، وتجديد مجد اسرائيل فيها . كما أن من جملة أساطيرهم الموروثة ، أنه في نهاية العالم ، سيعود نبيهم المبعوث المنتظر (أليعازر) لينقذهم ويمنحهم السيطرة على العالم بأسره . وأن ظهوره سيكون في فلسطين ؛ اذ يخرج على أتان تاريخي له من مياه بحيرة طبريا .

هذه أساطير نسوقها عرضاً دون نقد أو تعليق عليها ؛ لان ورود أمثالها طبيعي في جميع المذاهب . لكن الذي نستغربه هو أن هذه الاساطير عادت فتبلورت في عقيدة قومية ، وفكرة سياسية واجتماعية واقتصادية ، حتى ظهرت أخيراً بصورة دعوى « الوطن القومي » وانشائه في فلسطين .

وسياق ذلك أن اليهود الذين انتشروا في جميع البلدان الاوروبية سعياً وراء الكسب والمال — كما هي عادتهم وتربيتهم — كانوا عرضة للاضطهاد والتحقير

منذ عهد القرون الوسطى . وسبب هذا الاضطهاد الذي تعرضوا له هو انهم ظلوا يحتفظون بطابعهم الخاص حيثما حلوا . ولم يتشربوا الروح الوطنية في أية بلاد من البلدان التي استوطنوها . يضاف الى ذلك غريزتهم المادية الفظيعة ، في السعي لاكتساب المال بأية وسيلة كانت ، وحرصهم عليه بصورة تدعو الى النفرة والكراهية . وعندما وجدوا أنهم عرضة للاضطهاد حيثما كانوا ، بدأوا يفكرون بأن يجمعوا أنفسهم في بقعة واحدة من بقاع الارض ، يعيشون فيها مع بعضهم ، فيتمكنون من حماية أنفسهم - نسبياً - من جهة ، وينجون من اضطهاد الغير لهم من جهة ثانية . وكانت هذه الخلية الاولى لفكرة « الوطن القومي » . لكنها عند ظهورها لم تعين فلسطين او سواها من بلدان العالم ، لتكون ذلك الوطن المنشود .

ظلت هذه الفكرة تسير بين جزر ومد ، وغموض وايضاح ، حتى أواخر القرن التاسع عشر . فظهر اذ ذاك رجل يهودي - نمسوي الاصل - يدعى هارتسل كان متحمساً لفكرة الوطن القومي حماسة فائقة . فراح يدعو لتحقيق هذه الفكرة ثم يوجه انظار اليهود الى وجوب اتخاذ فلسطين وطناً قومياً لهم . حتى أنه وضع رسالة في هذا الموضوع عنوانها (الدولة اليهودية) ، صدرت سنة ١٨٩٦ ؛ وكانت أقوى دعوة يهودية عرفت حتى ذلك الحين ، لأجل انشاء وطن قومي في فلسطين . ولما كانت فلسطين في ذلك الوقت جزءاً من الامبراطورية العثمانية ؛ راح هارتسل يدعو في رسالته هذه وبعدها ، الى ضرورة التقرب من الباب العالي ، وانشاء الدولة اليهودية تحت حماية السلطنة العثمانية ، وتقديم الضمانات المتعددة لحماية الاماكن المقدسة ، الاسلامية والمسيحية على السواء .

نجح هارتسل في توجيه دعوته هذه ايما نجاح . والتف اقطاب الحركة اليهودية حولها في مختلف انحاء المعمور . وكان تاريخ صدور تلك الرسالة مبدأ نشاط الحركة الصهيونية الفعلي . ولم تكد تمضي سنة واحدة على ظهور رسالة هارتسل المشار اليها ، حتى تنادى قادة الفكر اليهودي في العالم ، وكبار رجال المال منهم ، الى عقد مؤتمر عالمي يهودي في مدينة (بال) في سويسرة ، اسندت رئاسته الى صاحب الدعوة الاصلي . وفي هذا المؤتمر ، وضعت برامج الحركة الصهيونية

بأسسها وتفاصيلها أيضاً . وأصبحت فلسطين منذ ذلك الحين محط انظار يهود العالم. وانشاء دولة قومية لهم فيها ، حلمهم الذهبي الذي يعللون النفس في تحقيقه . والذي نرجحه انهم استنوا هذا المؤتمر لانفسهم كقاعدة متبعة ، فراحوا في كل عام يعقدون مؤتمراً عالميا لهم على غراره في بلاد ما ، فيعرضون فيه مشاكلهم القومية العامة ، ويعدلون خططهم ومساعيهم حسب ما تقتضيه الظروف ، ويضعون قرارات يلاحقونها للتنفيذ . كل ذلك في سبيل تحقيق اسطورة الوطن القومي .

وبدأ اليهود يتسربون الى فلسطين منذ ذلك التاريخ . وشرعوا بشراء الاراضي والتملك . كما كثرت مراجعاتهم للسلطان عبد الحميد بهذا الخصوص . حتى أن زعيم هذه الاسطورة هارتسل نفسه قابل السلطان . ليحقق واياه تلك الصفقة . لكن مما هو جدير بالذكر ، أن السلطان عبد الحميد كان أدهى من اليهود في هذا الموضوع . فراح يراوغهم ويطاولهم ، ويستدرجهم الى مساومات متعددة ، بغية الاستفادة من نفوذهم السياسي في ذلك الجو الدولي المضطرب الذي كان يكتنفه ويحيط بامبراطوريته . حتى اذا وصل الامر الى حد الجد ، وقف منهم موقفاً حاسماً واتخذ التدابير لمنع اليهود من التمادي بشراء الاراضي في فلسطين .

كان لتصلب رجال السلطنة العثمانية في وجه اليهود تأثيره العميق في نفوسهم . وكاد يثني الكثير منهم عن عزمهم . وراح آخرون يفكرون بتحويل المساعي لانشاء وطنهم القومي في مكان ما من القارة الافريقية . لكن كبار زعماء هذه الفكرة لم يفت في عضدهم شيء ، ولم يرضوا عن فلسطين بديلا . فأبوا كل تحويل أو تبديل ، وظلوا يعملون قدر استطاعتهم ، ويتحينون الفرص السوانح .

وانبثقت شرارة الحرب العالمية الاولى في عام ١٩١٤ ! فرأى اليهود فيها الفرصة المنتظرة . وانحازوا بكل قواهم الى جبهة الحلفاء ، وراحوا يتفانون في الخدمة ويقدمون منتهى ما في طاقتهم من المساعدات . وكان أهم غرض ينشدونه من وراء المساهمة في مجهود الحلفاء الحربي ، هو بالطبع الحصول على تأييد من الحلفاء لفكرتهم في انشاء الوطن القومي في فلسطين . فنجحوا في هذه العملية نجاحا كبيراً ، بالنظر للخدمات الجلى التي أسدوها ، والتي كان من أبرزها اختراعات زعيم الحركة

الصهيونية الجديد الدكتور حاييم وايزمن ، الذي قدم للحلفاء انواعا جديدة من المتفجرات ، كان له تأثير غير قليل في مجرى الاعمال الحربية .

ولم تكن الحكومة البريطانية هي الدولة الوحيدة من دول الحلفاء التي جاهرت بتأييد فكرة اليهود آنذاك ، والعطف على حركتهم الصهيونية ، ومشروع الوطن القومي . بل كانت هذه هي سياسة الحلفاء عامه في ذلك الحين ، بما فيهم فرنسا ؛ وايطاليا ؛ حتى اليابان . وقد سبقت الحكومة الافرنسية في الجهر بتأييد مشروع الوطن القومي اليهودي . اذ وجه وزير الخارجية الافرنسية في شهر حزيران من عام ١٩١٧ خطابا رسمياً الى المسيو سوكلوف رئيس اللجنة اليهودية التنفيذية يؤكد له فيه عطف الحكومة الافرنسية على القضية اليهودية ومشروع الوطن القومي .

ثم جاء يوم ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) من السنة نفسها ، فصدرت فيه الوثيقة السوداء التي اتخذها اليهود حجر الزاوية في انشاء الوطن القومي ، والتي عدها العرب أشد طعنة وجهت الى صميم قضيتهم . ونعني بذلك « وعد بلفور » الشهير فقد صدر هذا الوعد بصورة كتاب رسمي ، وجهه اللورد بلفور وزير خارجية بريطانيا يومذاك ، الى اللورد روتشيلد المثري الشهير وزعيم اليهود في بريطانيا ، وذلك بعد أن تلي الكتاب في مجلس النواب البريطاني ونال موافقة عموم الاعضاء . وها نحن نثبت نص هذا الوعد المشؤوم فيما يلي ، على أن نعود لمناقشته وتفنيده في مقام آخر من هذا الكتاب . مع العلم ان القارىء سيلاحظ للوهلة الاولى ما فيه من تباين بين حقيقة ما ورد فيه ، وبين مدى ما ذهب اليهود في تفسيره .

جاء في الكتاب المذكور ما يلي : « ان حكومة جلالته تنظر بعين العطف الى انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين . وسوف تبذل ما في وسعها لتحقيق هذه الغاية ومن المفهوم انه لن يعمل شيء قد يضر بالحقوق المدنية أو الدينية للطوائف غير اليهودية الموجودة في فلسطين ، ولا بالحقوق السياسية التي يتمتع بها اليهود في أي بلد آخر » . اه

تسلح اليهود بهذا التصريح ، وسواه من الوثائق والوعود التي تتضمن العطف على حركتهم القومية ، دون أن تضمن أي تعهد قطعي بانشاء ذلك الوطن القومي المنشود ، أو اعتراف دولي بتهويد فلسطين ، أو انشاء دولة يهودية فيها . لكنهم مع

ذلك عدوها غنيمة كبرى ، ونصراً قومياً رائعاً لهم . وهي بالواقع لكذلك الى حد ما . فازدادوا اندفاعاً وتفانياً في تعزيز المجهود الحربي ؛ كما ازدادوا أملا بانشاء دولة يهودية لهم في فلسطين .

وبعد أن وضعت الحرب العالمية الاولى اوزارها ، بدأ تدفق سيول اليهود المهاجرين الى فلسطين ، واندفع هؤلاء في شراء الاراضي وامتلاك القرى ؛ وانشاء المستعمرات ، ثم تعاقبت بعد ذلك مؤتمرات السلام الدولية لتسوية القضايا الناجمة عن نتائج الحرب . فكان في طليعة تلك القضايا تقرير مصير البلدان العربية التي تقرر سلخها عن الدولة العثمانية المتهدمة . وفي مؤتمر سان ريمو المشهور الذي عقد عام ١٩٢٠ اقر انتداب دول الحلفاء على هذه البلدان وانيطت مهمة الانتداب على فلسطين بالحكومة البريطانية . فادخل وعد بلفور ضمن صك الانتداب هذا . فكان ذلك اول اعتراف دولي بمشروع الوطن القومي الصهيوني .

لكن هذه المعضلة الكبرى لم تكن سهلة الحل . ولم يعتبر قرار الانتداب المستند الى وعد بلفور نهاية لها ، بل كان على عكس ذلك ، مبدأ سلسلة من المراحل الخطيرة الشاقة التي مرت بها القضية الفلسطينية ، والقضية الصهيونية على السواء . وهذا ما سنرى تفصيله في الفصول التالية .

الصراع الدائم

قد يصح القول بانه لم ينشأ بعد الحرب العالميـة الاولى قضية دولية معقـدة ، وخطيرة ، كقضية فلسطين . فقد ظهر في تلك البقعة الصغيرة الوادعة ، تيـارات قومية متضادة ، ويتنازع بعضها بعضاً . مما ادى الى وجود توتر داخلي دائم ، وظهور الاضطرابات التي لم تكد تنقطع . وهـا نحن نحـاول أن نستعرض تلك التيارات المتنازعة وتطور صراعها العنيف فيما يلي :

(اولا): المطامع اليهودية — عد اليهود وعد بلفور وبيانات الحلفـاء الاخرى التي حصلوا عليها اثناء الحرب الماضية بشأن انشاء وطنهم القومي في فلسطين ، ظفراً كبيراً لهم . هذا صحيح . لكنهم اعتبروا حصولهم على تلك الوعود مطلع نضـالهم العملي في سبيل انشاء ذلك الوطن المنشود . كما انهم كانوا يجهرون بالقول ايضاً ان وعد بلفور وحده ليس كافيـاً لتحقيق مطامعهم في انشاء الدولة اليهـوديه في فلسطين . لذلك يجب تدعيمـه بمساع جديدة واقامـة دعائم تلك الدولة العتيـدة (الاسطورية) بصورة فعلية .

فالمطامع الصهيونية في فلسطين لم تكن لتقف اذن عند حد تنفيذ صك الانتداب البريطاني ، الذي يستطيعون ان يضمنوا بواسطته لابنـاء شعبهم حماية وامناً ، وان يعاملوا على قدم المساواة مع سواهم من السكان في جميـع الحقوق . كما انهم لم يكونوا ليكتفوا من الحكومة البريطانية بان تعطف على انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين مع المحافظة على الحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية في البلاد ، على نحو ما ورد في وعد بلفور ؛ بل كان هدفهم الحقيقي انشاء دولة يهودية كاملة في فلسطين لا تثبيت الانتداب البريطاني على هذه البلاد فقط ، واقصاء سكان البلاد الاصليين — اي العرب — عنها ، ليحل محلهم المهاجرون اليهود لا تأليف جاليات وجماعات يهودية تعيش فيها هادئة مطمئنة ، بعيدة عن كل اضطهاد سياسي او ضغط اجتماعي . لذلـك راحوا يحشدون في فلسطين ، مهـاجرين من مختلف ارجاء المعمور .

ويسعون دائماً لتوسيع باب الهجرة اليهودية الى هذه البلاد ، وجعلها تسير وتنمو على قدر اهوائهم السياسية ، لا قدر طاقة البلاد على الاستيعاب . حتى انهم كانوا يعتمدون في كثير من الاحيان على ادخال المهاجرين بصورة غير مشروعة ، لدى ظهور اي عائق او صعوبة من قبل السلطات المختصة في قبولهم مما سبب حدوث بعض القلاقل في مناسبات شتى .

ثم انهم راحوا يجمعون رؤوس الاموال الكبيرة ايضاً ، بواسطة التبرعات والاعانات ، او تأسيس الصناديق اليهودية المالية المتعددة او ما شاكل ذلك من الوسائل الجهنمية المختلفة . وغرضهم من ذلك ان يشتروا كل شبر من الارض يقع تحت يدهم . وافتنوا في امتلاك الاراضي واقتنائها بصورة مشروعة او غير مشروعة مما لم تعد تجدي مناعة العرب وسذاجتهم معه شيئاً .

ولما استقر بهم المقام على هذا النحو ، فاصبحوا يملكون مساحات غير قليلة من الاراضي وصار عددهم يتزايد على الدوام ، انصرفوا الى تعزيز مظاهرهم القومية . فاهتموا كثيراً بتعميم اللغة العبرية — التي اصبحت تعتبر احدى اللغات الرسمية الثلاث في فلسطين — وانشأوا لهم جامعة عبرية كبرى على جبل الزيتون في القدس راح يؤمها الشبان اليهود من مختلف اقطار العالم . واكثروا من تأسيس الاندية القومية ، والمدارس والجمعيات . وكان بين هذه الجمعيات ما هو ذو صبغة عسكرية ؛ كما ثبت ذلك مؤخراً ؛ وكانت ذروة جميع هذه المؤسسات والمنشآت ، « الوكالة اليهودية » التي اعترف لها بالصفة الرسمية ؛ والتي اعتبرت بمثابة جهاز حكومة وطنية ؛ يحق لها معالجة جميع شؤون اليهود ، والسهر على مصالحهم .

اما نشاطهم الاقتصادي فحدث عنه ولا حرج . اذ سرعان ما أسسوا المعامل والمصانع ، وانشؤا المستعمرات والمزارع ، وفتحوا المخازن التجارية الكبرى ، وسيطروا على الوكالات العامة والاسواق ، فأصبحت مقدرات فلسطين الاقتصادية بكاملها في ايديهم ، ثم ما لبثت منتجاتهم الصناعية ، وسلعهم التجارية ان اخذت تتدفق الى اسواق البلدان العربية الاخرى .

ولم يقتصر نشاطهم القومي والاقتصادي هذا على الحدود الايجابية فحسب ،

بل اتخذوا موقفاً سلبياً من العرب على الفور . فراحوا يطردونهم من كل بقعة يمتلكونها ، ولا يستخدمونهم في الاعمال الخاصة والعامة التي يسيطرون عليها او يسيرونها . كما راحت مدارسهم وجمعياتهم تغرس في نفوس الناشئة روح البغض للعرب ، والتحريض على اقصائهم من البلاد ، التي هي وطن يهودي ؛ ويجب ان تصبح يهودية صرفة . وكثيراً ما كان هذا الغرور القومي الارعن يستفزهم ، ويدفع بهم لتحدي العرب في المواسم العامة ، فيؤدي ذلك الى وقوع الاضطرابات الدامية التي نضرب صفحاً عن بحثها في هذا المقام .

(ثانياً) : نقمة العرب — لم يعترف العرب لليهود بالطبع بأي حق قومي أو دولي في فلسطين . كما انهم لم يعترفوا حتى على صك الانتداب ، شأنهم في ذلك شأن جميع الاحزاب الوطنية الاخرى في سائر الاقطار العربية . لذلك كانت وضعيتهم ازاء اليهود ومنظماتهم الرسمية او شبه الرسمية وضعية عدائية صريحة . كما كان موقفهم سلبياً من السلطات الحكومية المنتدبة ايضاً .

فقد اعتبر العرب انفسهم جميعاً انهم كانوا بعد الحرب الماضية مغبونين بصورة عامة . ذلك لانهم كانوا ينتظرون انشاء مملكة عربية متحدة ، تتألف من جميع الاقطار العربية التي سلخت عن الدولة العثمانية ، بما في ذلك فلسطين بالطبع . فحملهم هذا على عدم الاعتراف بنظام الانتداب والتجزئة في فلسطين ، وسورية ، والعراق . ومطالبة الحلفاء بالحاح ، بانشاء حكومة عربية مستقلة ، وتأسيس العلاقات بينهم وبين هذه الحكومة على اساس السيادة والاستقلال .

أما لدى عرب فلسطين ، فقد كانت روح السلبية اشد وأقوى منها في أي قطر عربي آخر . ذلك لانهم كانوا يعتبرون مصيبتهم مزدوجة بسبب الحركة الصهيونية ، كما كانوا يعتبرون اليهود عنصراً دخيلا على ديارهم ، لا حق له بالتملك والتوطن ، وممارسة أي سلطة من السلطات . ثم كانوا يعتبرون وعد بلفور عملا غير مشروع قامت به الحكومة البريطانية ، ضد رغبات العرب والعهود المقطوعة لهم . وانه يمنح اليهود حقوقا في فلسطين ، لا يقرها سكان البلاد الاصليون ، ولم

يؤخذ رأيهم فيها . كما كانوا يتصورون في البدء ان هذا الوعد ، يعني ضمانة لليهود بتحويل فلسطين الى دولة يهودية ، وذلك ما لا يمكن احتماله او تصوره بشكل من الاشكال .

وقد ادى موقف العرب السلبي هذا الى خلق كثير من الازمات السياسية بينهم وبين السلطات البريطانية المنتدبة . اذ رفضوا عدة مرات عروض انشاء مجلس تشريعي في فلسطين ؛ بالنظر لفرض وجود ممثلين لليهود في تلك المجالس ، كما رفضوا انشاء اي وضع حكومي آخر يحق لليهود المساهمة في السلطة التشريعية فيه . وكانوا يقاومون محاولات تحقيق هذه العروض او الخطط السياسية بجميع الوسائل السلمية والعنيفة ايضاً كما هو معروف .

أما مطاليبهم الوطنية التي كانوا يشترطون تحقيقها قبل الاشتراك بأي شكل حكومي فهي تنحصر بنقاط ثلاث لم يتحولوا عنها قط : (١) الغاء وعد بلفور (٢) منع الهجرة اليهودية الى فلسطين . (٣) منع بيع الاراضي الى اليهود .

ومما يؤسف له حقاً ، ان العرب كانوا عندما يستفزهم تحدي اليهود لهم ، او يغضبون لما يشاهدونه من تمادي هؤلاء في تعزيز مظاهرهم القومية ، التي هي مظاهر غير مشروعة بنظرهم ، واعمال عدائية بالنسبة لهم ، تدفعهم الحماسة الى القيام بمظاهرات عدائية مقابلة ضد اليهود . وسرعان ما يتطور الاحتكاك بين هذين العنصرين المتنازعين الى اختلال بالامن العام . عند ذلك تضطر السلطات المسؤولة الى التدخل في الامر . فيتواري اليهود الجبناء على الفور ، ويجد العرب انفسهم امام القوات البريطانية وجهاً لوجه . فيتحول الموقف اذ ذاك الى نزاع بينهم وبين هؤلاء . وقد سبب تكرار هذه الحوادث مع الاسف بعض التباعد وسوء التفاهم بين الفريقين . لكن تجارب الايام ما لبثت أن اظهرت الحقيقة ؛ وتبين كل من الانكليز والعرب نوايا رفيقه الاصلية وموقفه منه . كما كشف القناع عن المطامع الصهيونية الجشعة التي كانت السبب في تعكير صفو العلاقات الودية السابقة ، وخلق القلاقل والاضطرابات الدائمة في فلسطين ، التي كانت تتجاوب اصداؤها في العالم العربي ؛ والاسلامي ، والدوائر الدولية العالمية العليا ايضاً .

(ثالثاً) : موقف السلطات البريطانية — وجدت السلطات البريطانية نفسها في فلسطين ، في أحرج المواقف وسط هذا الصراع الدائم ، والتيارات السلبية المتضاربة .

اليهود والعرب يتنازعان ملكية فلسطين ، وكلا الفريقين تربطه بالحكومة البريطانية صلات تقليدية وصداقات قديمة ، وكلاهما خاض الحرب الكونية الى جانبها ، في سبيل تعزيز أمانيه القومية ، وحصل من رجال الحكومة البريطانية المسؤولين على مواثيق ووعود ، هي بالواقع قابلة التفسير والتأويل ، ولم يتم بصورة رسمية تحديد ماهيتها الحقيقية ، ومدى مفعولها ، وضماناتها .

وقد أنيط بالحكومة البريطانية مهمة الانتداب على فلسطين من قبل مجلس عصبة الامم . وانشأت حكومة محلية تدير البلاد على طريقة الحكم المباشر ـ بصورة موقته ـ ، لكنه لم يتفق رأي السكان ـ بما فيهم سيول المهاجرين من اليهود الذين اعتبروا مواطنين فور وصولهم الى البلاد ـ على انشاء شكل حكومي آخر ، بسبب هذه التيارات السلبية المتضاربة .

فالسلطات البريطانية إذن مسؤولة عن الامن والادارة الداخلية في البلاد ، والجو مكفهر على نحو ما وصفناه آنفاً ، ينذر بانطلاق الشرارة في كل لحظة

وللحكومة البريطانية في فلسطين ، مصالح خاصة مباشرة ايضاً ، لا يمكن تجاهلها . اذ من جملة العوامل التي أكرهتها على خوض غمار الحرب العالمية الاولى ، الحؤول دون الاندفاع الالماني نحو الشرق ، وحماية مصالحها في الشرق الاوسط الواقع تحت سيطرة الدولة العثمانية ، والمحافظة على سلامة مواصلاتها الامبراطورية في شرقي البحر المتوسط ، تلك المنطقة التي تؤلف حلقة حيوية هامة من طريق الهند . لذلك نرى أن لفلسطين قيمة كبيرة في الستراتيجية الامبراطورية البريطانية لا تستطيع ان تفرط بها .

هذه هي التيارات الثلاثة التي ما برحت تضطرب وتتنازع في فلسطين ، والتي يلزم على الحكومة البريطانية المحافظة على الامن الداخلي والسلامة الخارجية لهذه

البلاد مع وجودها ، لكن الواقع أن فلسطين - بسبب هذه التيارات المتنازعة - لم تعرف الاستقرار الصحيح في داخلها ، منذ ان وضعت الحرب الماضية اوزارها حتى اليوم . فقد بدأ النزاع بين العرب واليهود منذ وعد بلفور ، وهو نزاع قومي لا هوادة فيه ولا تراخي . ثم تحول النزاع الى ما بين العرب والسلطات البريطانية ، وذلك لان اليهود الذين كانوا يتظاهرون بالمسكنة والهوان ، راحوا يستنجدون بالبريطانيين لحمايتهم والدفاع عن نفوسهم و كيانهم ، ويصورون نقمة العرب عليهم ، بانها اعتداء انساني على شتات شعب ضعيف ، وتمرد على نظام الانتداب ، وعلى الحكم البريطاني للبلاد .

وبعد ما بلغ هذا الدور الثاني من النزاع ذروته بين عام ١٩٣٦ - ١٩٣٩ ، وأصدرت الحكومة البريطانية اثر مؤتمر لندن ، الكتاب الابيض المشهور ، الذي اعتبر افضل حل لهذه المعضلة المستعصية ، والذي استوحي من موازنة حقوق الفريقين المتنازعين ، ومن حقيقة الوضع الراهن ، عدل العرب عن سياسة العنف لا سيما بعد انبثاق شرارة الحرب العالمية الثانية ، وتنادى حتى اشد الزعماء المتطرفين فيهم الى وجوب الاخلاد الى السكينة والمحافظة على الامن ، منعاً لعرقلة مجهود حلفائهم الحربي في مثل تلك الظروف الحرجة ؛ واعتماداً على ضمير الحكومة البريطانية لتسوية قضيتهم تسوية عادلة في مؤتمر السلام .

إلا أن اليهود ، الذين كانوا يتظاهرون بالعجز والمسكنة ، ويستجدون حماية الحكومة البريطانية لهم ، تحولوا إثر ذلك الى ذئاب غادرة ، وتنكروا لحماتهم والمدافعين عن كيانهم وحقوقهم الواهية ، مدعين الغبن في التسوية الاخيرة للقضية الفلسطينية التي تضمنها الكتاب الابيض ؛ وكأنهم ارادوا استغلال حراجة الموقف الذي احترمه العرب ؛ فانتقضوا على السلطات البريطانية في فلسطين ، وراحوا يغمرون البلاد بهذه الموجة من الفوضى والارهاب ؛ التي لم يعد أمرها خافياً على أحد ، وكان هذا هو الدور الثالث من ادوار ذلك الصراع الداخلي الدائم الذي ما برحت فلسطين تعاني آلامه وشواظه منذ نيف وخمس وعشرين سنة .

لجان التحقيق البريطانية

منذ صك الانتداب حتى الكتاب الابيض

اذا اردنا ان نلخص تاريخ تطور القضية الفلسطينية من وجهتها السياسية في الفترة التي امتدت بين الحربين العالميتين الاخيرتين ، نستطيع ان نكتفي باثبات تقارير لجان التحقيق البريطانية التي كانت تؤلف اثر كل اضطراب ينشأ في تلك البلاد ، وامثال هذه الاضطرابات كثير كما هو معلوم :

اللجنة الاولى

بدأ الاضطراب الداخلي في فلسطين تغلي مراجله ، منذ أن أعلن وعد بلفور بصورة رسمية في بيت المقدس . لكنه في عام ١٩٢٠ عندما انتهت مؤتمرات السلام من تقرير مصائر البلدان العربية واقرار نظام الانتداب وادمج وعد بلفور مع صك الانتداب على فلسطين ، بدأ الصراع الفعلي بين العرب واليهود ، وهو صراع قومي لبقاء احد الفريقين او فنائه ، والتفرد بملكية هذه البلاد المتنازع عليها .

وكان من جراء ذلك ان نشبت سلسلة من الاصطدامات بين سنتي ١٩٢٠ — ١٩٢١ ، كان سببها دائماً قيام احد الفريقين بمظاهرة قومية في مناسبة ما . وتعرض الفريق الثاني له بصورة من الصور . وكان فاتحة هذه السلسلة اصطدام كبير وقع في مدينة يافا يوم اول ايار — الذي هو عيد العمال — سنة ١٩٢١ . وسببه ان العمال اليهود قاموا بمظاهرات كبرى في المدن الفلسطينية في ذلك التاريخ ، كانت اكبرها مظاهرة مدينة يافا . وصدف مرور افراد من العرب امام جموع المتظاهرين من اليهود . فتبودلت بعض العبارات او الاشارات غير المستحبة بين الفريقين ، فما كان من المتظاهرين الا ان انهالوا على اولئك الافراد بالضرب المبرح

فهرع عرب يافا لانقاذ اخوانهم ؛ وعم الاضطراب المدينة ، وانتقل الى خارجها ايضاً . وذهب بضع عشرات من القتلى والجرحى من الفريقين ، وكان هذا اول اصطدام ذا اهمية يقع بين العرب واليهود في فلسطين .

اهتمت السلطات البريطانية بهذا الحادث وانتدبت لجنة تحقيق — كانت هي الاولى من نوعها — لتقوم بدرس اسباب هذه المسألة وكيفية تطورها وتعيين مثيريها والمسؤولين عنها . وكانت هذه اللجنة تغلب عليها الصفة القضائية المسلكية ، ويرأسها السر توماس هايكرت قاضي قضاة فلسطين آنذاك .

لكن هذه اللجنة ما لبثت ان وجدت نفسها انها ليست امام قضية حقوقية او جزائية من قضايا الاختلافات العادية . بل هي امام مشكلة سياسية كبرى ، عميقة الجذور ، متشعبة الفروع . لذلك توسعت في البحث والتحقيق فاتضح للقضاء الانكليزي الذي هو مضرب المثل بالنزاهة ، بطلان كثير من الادعاآت التي نسبت الى العرب . ووضعت تقريراً رسمياً تقول فيه ان الصراع بين العرب واليهود دائر حول الكيان القومي . وان العرب يخشون تحقيق فكرة الوطن القومي اليهودي كما يتوجسون خيفة وقلقاً من تزايد نفوذ اليهود في الدوائر الحكومية ، وكثرة عددهم في البلاد .

فاهتمت الحكومة البريطانية لهذا التقرير ، ورأت تبايناً كبيراً بين ادعاآت اليهود وواقع الحال في فلسطين . لذلك ارادت ايضاح الموقف قدر المستطاع عام ١٩٢٢ ، ووضع حد لغلواء اليهود ومغالاتهم . وصدر على اثر ذلك بيان حكومي رسمي في لندن ، يشير الى تمركز طائفية يهودية محترمة الجانب في فلسطين . وان هذا الامر دليل على تنفيذ وعد بلفور . كما اشار ايضاً الى ان الهجرة اليهودية الى فلسطين يجب ان تتناسب مع قدره البلاد على الاستيعاب .

فاثار هذا البيان قلق اليهود واحقادهم . واستشفوا منه ان الحكومة البريطانية سوف لا تجاريهم في مطامعهم الاشعبية الى النهاية ، وانها سوف لا تؤول وعد بلفور على نحو ما يريدون . لذلك راحت صحفهم المتطرفة تقول بوجوب السعي الحثيث لانشاء الدولة اليهودية في فلسطين ، ووضع حد لهذا الموقف المتقلقل . في حين ان

العرب ازدادوا تخوفاً من اليهود بالطبع ، وامعنوا في موقفهم السلبي ازاء السلطات البريطانية . ولم يسعوا للاستفادة من ذلك النور الضئيل الذي بدأ يلوح من هذا البيان الرسمي محاولا تفسير وعد بلفور على انه مساعدة لليهود على تأمين موطن او ملجأ لهم في فلسطين يستقرون فيه آمنين وينشئون فيه طائفة يهودية هناك ، لا انه يضمن لهم انشاء دولة يهودية في تلك البلاد تكون صاحبة السيادة المطلقة . لذا ظل الموقف على ما كان عليه بالنسبة للعرب .

لجنة شو

بعد الاضطرابات التي نشبت في فلسطين بين سنتي ١٩٢٠ — ١٩٢٢ ، والتي اكدت عدم امكان الجمع بين النار والبارود في مستودع واحد ، عاد الهدوء الوقتي الى البلاد . فانصرفت السلطة المنتدبة الى تعزيز الجهاز الحكومي ، والاهتمام بالشؤون الادارية . وانصرف العرب الى اعمالهم الخاصة وكأنهم لم يكونوا يأبهون كثيراً بامكان استفحال خطر الصهيونية آنذاك ، بالنظر لضعف معنويات اليهود . واستصغار شأنهم . اما اليهود فقد اندفعوا في فترة هذا الهدوء يعززون مشروع وطنهم القومي بكل قواهم . فاهتموا بصورة خاصة بشراء الاراضي . ويرجح انهم امتلكوا معظم ما وصل الى ايديهم من الاراضي حتى الان بين سنة ١٩٢٣-١٩٢٨ كما انهم اهتموا بتعزيز الهجرة اليهودية الى فلسطين ، وراحوا يدفعون بالمهاجرين افواجاً افواجا . حتى بلغ عددهم حوالي ربع مليون بعد ما كان قبل الحرب الماضية اقل من خمسين الفاً .

وكان من جراء توسع الاستعمار الصهيوني على هذا الشكل ان تنبه العرب الى الخطر الذي يحدق بهم . فازداد حقدهم على اليهود ، وتمكنت روح الكراهية والنقمة في نفوسهم . أما اليهود من جهتهم ، فانهم شعروا بشيء من القوة . فازدادوا تظاهراً بقوتهم هذه لكسر شوكة العرب من جهة ، ولزج الحكومة الفلسطينية في مواقف حرجة من جهة اخرى ، تؤدي الى توتر العلاقات بينها وبين العرب ، فيستفيدون هم من هذا التوتر لاجل زيادة نفوذهم وتوطيد مركزهم .

وفي آب عام ١٩٢٩ صادف عيد خراب الهيكل عند اليهود . ومن التقاليد

المعروفة عندهم . ان يزوروا جدار هيكل سليمان المعروف (بالمبكى) في هذه المناسبة فيقيمون الصلوات والمناجات ، ويبكون مجدهم المفقود . وهذا المكان المعروف لديهم بالمبكى ، اصبح جزءاً من الحرم الشريف ، وجداراً لصخرة البراق المطهرة .

قر رأي اليهود امتحان قوتهم ومدى نفوذهم في هذه المناسبة ، ومحاولة تثبيت فكرة الوطن القومي بدليل حقوقي محسوس . فنشروا دعاية واسعة النطاق بين صفوفهم لزيارة المبكى في ذلك النهار وساروا اليه بجموع غفيرة ، وبشكل مظاهرات حماسية . مما استرعى انتباه العرب منذ الخطوة الاولى . وحملوا معهم اثناء هذه الزيارة ، مقاعد خشبية ، اثبتوا معظمها في جدار البراق . ولما انقضى ذلك النهار الذي هو موعد الزيارة الرسمي ، لم تنصرف تلك الجموع كلها . بل ظل عدد كبير منهم في مكانه ، واحتلوا المقاعد التي اثبتوها في الجدار .

لم يستطع العرب بطبيعة الحال ، السكوت على مثل هذا الاعتداء الصارخ على حقوقهم ومقدساتهم . فما كان منهم الا ان حشدوا جموعهم هم ايضاً ، وهجموا على اليهود الذين حاولوا التمركز عند جدار البراق فحصلت مشاجرات دامية عنيفة ادت الى وقوع عدة اصابات من الفريقين . غير أن العرب تمكنوا خلالها من تحطيم المقاعد الخشبية التي اثبتها اليهود في جدار البراق ، واجلائهم عن المكان باسره .

الا ان اليهود الذين اضمروا الشر من البداية لم يسكتوا ايضاً . فتوالت الاعتداءات والاصطدامات المسلحة في مدينة القدس ، ثم انتشر الاضطراب الى خارج القدس ايضاً ، حتى عم سائر المدن الفلسطينية الكبرى . واستفحل امر هذه الفتنة كثيراً ، اذ شملت البلاد بأسرها وظلت مضطرمة الاوار زهاء اسبوعين . ووقع فيها كثير من الحوادث الخطيرة مما لا مجال لسرده الان . فقلقت السلطات البريطانية لهذه الحالة ، واضطرت الى ارسال قوات عسكرية كبيرة من الخارج بينها بعض وحدات بحرية ، كما اضطر المندوب السامي الذي كان آنذاك بالاجازة ، الى قطع اجازته والعودة من لندن على متن طائرة خاصة . فتمكنت السلطات المختصة بفضل التدابير المتعددة من تهدئة الحالة بالنتيجة .

غير أن الحكومة البريطانية ـ رغم هدوء الحالة ـ رأت ان تكرار الاصطرابات

في فلسطين ، واتساع نطاقها على التمادي ، لا يتلاءم مطلقاً مع مصلحة البلاد العامة ولا مع مصلحة احد من الفرقاء ذوي العلاقة فألفت بعد انتهاء حوادث آب سنة ١٩٢٩ لجنة برلمانية قوامها اربعة اعضاء من مجلس العموم ، ترأسها النائب المستر والترشو الذي عرفت اللجنة باسمه فيما بعد . وكلفتها السفر الى فلسطين ، والقيام بتحقيقات واسعة للبت في قضية المبكى والبراق اولا ، ثم للوقوف على اسباب تلك الحوادث الاخيرة ، واستطلاع حقيقة الموقف الداخلي العام ، وعوامل النزاع بين العرب واليهود ، وايضاح مسألة الهجرة والاراضي ، ومقدرة البلاد على الاستيعاب .

قامت هذه اللجنة بالمهمة المسندة اليها خير قيام . فظلت نيفاً وثلاثة اشهر تطوف انحاء البلاد ، وتزور مختلف المدن والقرى ، وتتصل بجميع طبقات السكان من شتى الطوائف والمذاهب . وكانت في تحقيقاتها هذه غاية في النزاهة والتجرد عن كل تأثير أو دعاية . وبعد أن جمعت المعلومات اللازمة ، عادت الى لندن في اواخر شهر كانون الاول ، لوضع تقريرها الرسمي ، وعرضه على الحكومة البريطانية .

ابطأ وضع ذلك التقرير ، كما تأخر موعد نشره واذاعته . وذلك لاسباب داخلية بين أعضاء اللجنة على الارجح . لكنه وضع اخيراً في اوائل شهر آذار ونشرته الحكومة في اول نيسان ، وصادف آنذاك وصول الوفد العربي الفلسطيني الكبير الى لندن في اليوم نفسه ، ممثلا لجميع الهيئات والاحزاب العربية .

والواقع أن تقرير لجنة شو هذا ، جاء موافقاً لوجهة نظر العرب في كثير من النواحي ، وان كان لم يتضمن احكاما حاسمة في حل المشكلة الفلسطينية المعقدة . اذ حكمت هذه اللجنة قبل كل شيء ببراءة الزعماء العرب من اثارة الاضطرابات السابقة الذكر . كما اكدت ان تلك الحوادث لم تكن موجهة ضد السلطات البريطانية ، ولا حاولت مس الجهاز الحكومي المحلي بشيء . بل هي نتيجة تنافس وعداء بين العرب واليهود .

أما فيما يتعلق بموضوع الهجرة اليهودية ، فلم يرد نص صريح عنها في هذا التقرير . لكنه أشار الى أن اليهود تجاوزوا الحدود المتفق عليها ، والممنوحة لهم

في صك الانتداب او غيره من الوثائق . وان الوكالة اليهودية تظهر كثيراً من التدخل في الشؤون العامة للبلاد ، في حين انه لا يوجد لدى العرب مؤسسة كهذه. وهذا مما اثار مخاوف العرب ، وزاد في خلق التوتر السياسي بين الفريقين .

ثم تناول التقرير قضية امتلاك اليهود للاراضي ، والبرنامج الاستعماري ، فأشار الى أن بعض المزارعين العرب قد فقدوا اراضيهم بصور غير مشروعة . وانهم لم يحصلوا على غيرها بالمقابل . فأوجد هذا طبقة من السكان متبرمين ساخطين . كما اشار - بصورة التلميح - الى أن البلاد لم تعد قادرة على استيعاب عدد اكثر من السكان ، وفي هذا اعتراض مبدئي ، على اطلاق الهجرة اليهودية الى فلسطين .

ولم تشأ هذه اللجنة البرلمانية أن تتحمل مسؤولية اصدار احكام قاطعة في الشؤون الاساسية . بل اكتفت بعرض هذه النواحي التي اشرنا اليها آنفاً بصورة عامة . ثم أوصت بلزوم انتداب لجنة فنية لدرس قضية الهجرة ، والاراضي ، ومقدرة البلاد على الاستيعاب لعدد جديد من السكان ، ولجنة اخرى حقوقية لدرس قضية البراق والمبكى ، وتعيين ملكية هذا الجدار . واذا أردنا أن نعلق على تقرير هذه اللجنة العام بوجه الاجمال ، قبل الانتقال الى تقارير اللجان الفرعية ، لا بد لنا من القول انه كان دليلا واضحاً على أن السياسة البريطانية لا ترمي الى تهويد فلسطين . وانه كان من صالح العرب كثيراً ان يحسنوا الاستفادة من تلك السياسة من قبل ، فينشطوا في الدعاية لقضيتهم ، ويحسنوا التوفيق بين وجهات نظرهم ووجهات النظر البريطانية الصحيحة .

تقرير سمبسن : - لم تقف الحكومة البريطانية عند المرحلة الاولى من الطريق. بل أخذت جميع مقترحات لجنة شو بعين الاعتبار . وانتدبت خبيراً فنياً - هو السرجون سمبسن للسفر الى فلسطين ، والتحقيق في قضية الاراضي ، ومعضلة الهجرة اليهودية ، ومقدرة البلاد على استيعاب المهاجرين .

وصل المستر سمبسن الى فلسطين في ٢٠ ايار سنة ١٩٣٠ فتجول في ارجاء البلاد المختلفة . وطاف جميع المناطق للاطلاع على طبيعة الاراضي ومساحتها ، وتبين مقدار

ما يملكه كل من العرب واليهود بالنسبة الى عددهم . وبالنتيجة وضع هذا المندوب الخاص تقريراً هاما ـ جاء في مصلحة العرب ـ ورفعه الى وزارة المستعمرات البريطانية، وهذه هي أهم البنود التي وردت فيه :

اولا — ان الاراضي التي يملكها العرب (في شهر حزيران سنة ١٩٣٠) لا تكفي لسد حاجتهم .

ثانياً — لم يبق في البلاد اراض اميرية لتمنحها الحكومة لليهود ، لتوسيع ملكيتهم . وكل ارض جديدة تنتقل لليهود من حساب المزارعين والعرب ، لن تخرج من ايديهم ثانية .

ثالثاً — تسعى الوكالة اليهودية الى ادخال عدد اكبر من اليهود الى فلسطين ، اما بصفة زائرين او لاجئين ، او عن طريق التهريب ، اضافة الى الذين يصرح لهم بالدخول رسميا بالاتفاق مع الحكومة . ولابد ان تؤدي زيادة الهجرة على هذا الشكل ، مع اختلال توازن ملكية الاراضي ، الى تجدد القلاقل والاضطرابات .

يرى القارىء من هذه النقاط ان تقرير سمبسن جاء مؤيداً لمطالب العرب بتحديد الهجرة ومنع بيع الاراضي ، ومؤكداً وجهة نظرهم القائلة بان اليهود تجاوزوا جميع الحدود الممنوحة لهم . وان تمادي الهجرة اليهودية، وتوسع الاستعمار الصهيوني يجعلان الموقف العام في فلسطين مضطربا على الدوام . ولو اخذ هذا التقرير في حينه بعين الاعتبار ، ووضعت سياسة جديدة لحل القضية الفلسطينية على ضوئه ، لكان في ذلك من الفائدة المشتركة مالا يخفى امره .

لجنة البراق — لم يكد السر جون سمبسن ينتهي من وضع تقريره هذا ، حتى انتدبت الحكومة البريطانية لجنة اخرى للتحقيق في المسألة التي كانت السبب المباشر في اثارة حوادث آب سنة ١٩٢٩ ، نعني بها قضية (جدار البراق) . فالفت لجنة دولية — من غير البريطانيين لهذا الغرض . ووافقت عصبة الامم على انتداب هذه اللجنة التي وصلت الى القدس في اواخر حزيران سنة ١٩٣٠

وعندما انتشر خبر وصول هذه اللجنة الي بيت المقدس ، وحقيقة المهمة التي

انتدبت لاجلها ، اثارت الحماسة عرب فلسطين جميعاً ـ من مسلمين ومسيحيين ـ كما تقاطرت وفود المسلمين من غربي افريقيا حتى الهند ، للدفاع عن الحرم الاقصى وجدار البراق الشريف . فالامر جد والساعة حاسمة . وهل اخطر من ان ينازع اليهود العرب والمسلمين في ملكية جدار المسجد الاقصى ؟!!

قامت هذه اللجنة بتحقيقها الدقيق ، بهدوء ورزانة . وسمعت ما ارادت سماعه من الافادات والبيانات . واطلعت على الوثائق والادلة المادية التي يتشبث بها كلا الفريقين . واخيرا ، بعد هذا البحث والتدقيق ، اصدرت حكمها القاطع القاضي باعتبار جدار البراق ملكا للمسلمين ، على ان يسمح لليهود بزيارة (المبكى) فقط ، دون ان يكون لهم حق في اقامة مقاعد ثابتة او ما شاكلها هناك .

ولابد من القول ان هذا الحكم الدولي يعتبر ظفراً حقوقياً صريحا للعرب ورداً لجميع مزاعم اليهود وادعاآتهم في ملكية فلسطين بموجب حقوقهم القومية القديمة . ويصح ان نتخذ قضية التنازع على ملكية هذا الجدار صورة مصغرة عن النزاع الاكبر على ملكية فلسطين . اذ أن اليهود يطالبون بهذه البلاد لتجديد مملكتهم القديمة فيها (مملكة سليمان) ويبنون حقوقهم في مشروع الوطن القومي على هذه الحجة . وهذا جدار البراق — او المبكى — هو جزء من هيكل سليمان الذي هو اقدس آثار تلك المملكة بالطبع ، بل الاثر الوحيد الباقي منها . فاذا كانوا قد خسروا دعواهم فيه ، باعتبار ان الملكيات القديمة الدائرة لا تلغي ملكية جديدة مشروعة مكتسبة بالحق والطرق القانونيه ، ومر عليها مئات السنين ، حري بهم اذن ان يتبينوا خسران دعواهم العامة في استعادة امتلاك البلاد من الوجهة الحقوقية .

والخلاصة ان النتائج الدولية لحوادث آب المشؤومة كانت في مصلحة العرب واذا كانت قد اوجدت بعض التوتر الطارىء بين العرب والسلطات البريطانية في فلسطين المسؤولة عن الامن في البلاد ، الا ان التحقيقات التي اجرتها اللجان الانفة الذكر ، قربت كثيرا بين وجهة النظر العربية والسياسة البريطانية العليا فيما يتعلق بمعالجة القضية الفلسطينية . اذ اثبتت اولا ان العرب غير مسؤولين عن تلك القلاقل

وان اعمالهم العدائية لم تكن موجهة ضد السلطات البريطانية . ثم اظهرت خطر تمادي الهجرة الصهيونية الى البلاد . واختلال التوازن في ملكية الاراضي . وهذا يتفق مع مطاليب العرب القائلة دائما بوجوب ايقاف (او تحديد) الهجرة الصهيونية ومنع انتقال الاراضي الى اليهود . كما اثبتت اخيرا ملكية العرب والمسلمين لجدار البراق ، ودحضت بذلك ادعاآت اليهود في محاولة احياء تراثهم التاريخي الدارس واتخاذه وسيلة لاثبات حقهم في انشاء وطن قومي جديد .

اللجنة الملكية

كانت الهزيمة الحقوقية التي لحقت باليهود اثر تقارير لجنة شو واللجان المتفرعة عنها ، كبيرة مزرية ، لكنها لم تكن حاسمة . اذ ان السياسة الصهيونية من مبدأها دائماً تكييف الواقع حسب اهواء اليهود ومصالحهم . كما أن هذه السياسة في فلسطين بنوع خاص ، لم تكن لتعتمد على القرارات الدولية او الانظمة المحلية ، ولا لتتقيد بصك الانتداب او ارادة السلطة المنتدبة في مساعيها المتشعبة والكيفية من اجل تحقيق فكرة الوطن القومي اليهودي . بل كانت تعتمد على الاساليب الجهنمية ، والدسائس اليهودية المبتكرة ؛ وتعمل بحسب وحي الجمعيات اليهودية العالمية العليا ، واوامرها وخططها .

أما الاغراض التي يسعى اليها اليهود فهي أن يصبحوا اكثرية في فلسطين ، وان يمتلكوا اكبر مقدار ممكن من الاراضي ، وأن يجعلوا الجهاز الحكومي المحلي اداة لتنفيذ مآربهم ، وحماية اعمالهم ومشاريعهم الخاصة والعامة . حتى اذا تم لهم الحصول على هذه الامور ، تنكروا لكل قانون دولي أو نظام محلي ، وشرعوا بانشاء دولة يهودية ذات سيادة تامة في التشريع والتنفيذ .

وعندما تبينوا أن السلطة المنتدبة في فلسطين ـ مع أنها تتقيد بتنفيذ وعد بلفور المتصل بصك الانتداب ـ لن تبلغ في مجاراتهم الى هذه الحدود غير المشروعة التي يحلمون بها ، وان الجهاز الحكومي المحلي لن يكون اداة مسخرة لتنفيذ مطامعهم

الاشعبية ـ مع انهم كانوا اوفر حظاً من العرب في الاستفادة من هذا الجهاز ـ أخذوا يعمدون الى الوسائل غير المشروعة للوصول الى أهدافهم الانفة الذكر . فراحوا يسعون الى ادخال آلاف اليهود الى فلسطين شهريا بطريق التهريب . وراحوا يضعون يدهم على مرافق البلاد الاقتصادية بغية افقار العرب ؛ واجبارهم على التخلي عن اراضيهم وممتلكاتهم . كما راحت الوكاله اليهودية تتخذ لنفسها صفة حكومة مطلقة في تصريف الشؤون العامة والخاصة المتعلقة باليهود ، وتحاول بسط نفوذها على معظم الدوائر الحكومية ايضاً .

نعم لقد ظهرت خطط اليهود هذه ومساعيهم جلية بين سنة ١٩٣٠ ـ ١٩٣٥ ، وكانوا كلما يزدادون قوة وتوسعاً ، تزداد مخاوف العرب من سوء المصير ، فيزداد الجو الداخلي في فلسطين بذلك توتراً وتعقداً . وتشاء الاقدار أن تكتشف في شهر تشرين الثاني عام ١٩٣٥ ، شحنة كبيرة من الاسلحة في ميناء يافا ، مرسلة الى بعض التجار اليهود باسم بضائع تجارية عادية . ويدل التحقيق على أن هذه الشحنة ليست الاولى من نوعها . فتثور ثائرة العرب عند ذلك ؛ وتزداد مخاوفهم ، ولا تتخذ الحكومة المحلية شيئا من الاجراءات الحازمة لتلافي الموقف . فيرسخ في ذهن العرب أن اليهود أصبحوا يملكون منظمات عسكرية مدربة ومسلحة في البلاد ، لا رادع لها ، ولا رقيب عليها . ويخشى أن تقوم باعمال عدائية ضد العرب بأية لحظة كانت . فلم يعودوا يرون أمامهم وسيلة لملافاة الامر الا الاستعداد لمقابلة الشر بالشر .

وكان من جراء هذا التوتر والتحدي ، أن انبثقت شرارة الثورة الفلسطينية الكبرى في صيف عام ١٩٣٦ ؛ بعد سلسلة طويلة من الحوادث التمهيدية . وليس لنا أن نطيل الكلام في هذا المقام عن تلك الثورة ؛ وأسبابها واطوارها وذيولها ، لاننا نريد في هذا الكتيب أن نقصر الكلام على عرض القضية الفلسطينية من ناحية واحدة فقط ، هي الناحية السياسية الدولية ، لكنه لا بد من التنويه بأن اليهود قاموا باعمال تمهيدية خطيرة من حوادث الاعتداءات والتحدي ، كونت بعض الاسباب المباشرة الرئيسية التي ادت الى نشوب تلك الثورة المشار اليها .

ومن المؤسف حقاً في تاريخ هذه الثورة الكبرى ، أن يكون اليهود الذين

اشتركوا في تأجيج نارها ؛ واستفزاز العرب للقيام بهـا ، سرعان ما تواروا عن مجابهة العرب ، محتمين وراء قوات الامن البريطانيـة ـ التي يلقون على رجالها القذائف اليوم ـ فأدى ذلك الى تحويل النزاع بين المجاهدين العرب ؛ وبين القوات البريطانية بصفتها مسؤولة عن حماية الامن في البلاد . واشتد امر هـذه الثورة ؛ واتسع نطاقها كما هو معلوم ، حتى اشترك فيها مجاهدون من مختلف الاقطار العربية. واتخذت الحوادث التي جرت اثناءها ، موضوع دعايات متنوعة لم يعد امرها خافياً على احد . وكاد هذا يؤدي الى تعكير العلاقات بين العرب والبريطانيين بصورة عامة.

لكن روابط الود المتينة لم تزعزعها هذه الاعاصير العاتية . فالحكومة البريطانية لم تغمض عيونهـا عن الحقـائق الواقعية . ولم تصغ لاقوال الصهيونيين الغلاة واعوانهم ؛ الذين راحوا ينعتون جهاد العرب بالتمرد والخروج على النظام، ويصمون العرب بالوحشية والميل الى القتل والتخريب . لذلك ارتأت أن تتخذ من هـذه الازمة الحـادة بابا لحل تلك القضية المستعصية ، وأن تعالج الموقف بصورة فعـالة مجدية يضمن القضاء على تكرر مثل هذه المنازعات العنيفة ، وما تجره وراءها من الذيول الخطيرة . فقررت تأليف لجنة ملكية عليا توفد الى فلسطين لدرس الوضع الراهن في البلاد ، وسماع وجهـات نظر العرب واليهود ؛ واقتراح الحل النهـائي الحاسم لهذه المعضلة المعقدة .

كما أن الشعب العربي الذي لا يثور الا في سبيل الحق والكرامة لا في سبيل الاعتداء والتمرد ، ظل يقدر الصداقات حق قدرها . فعندما تبين عزم السلطات البريطانية على معـالجة القضية الفلسطينية بعين العدل والانصاف ، التي مجاهدوه السلاح على الفور ؛ تلبية لنداء ملوك العرب الذين رغبوا جميعـاً بذلك وتمهيداً لخلق جو من الهدوء والسكينة يساعد اللجنة الملكية على القيام بمهمتها .

وصلت اللجنـة الملكية الى فلسطين في شهر كانون الاول عام ١٩٣٦ . وكان يرأسها اللورد بيل ، وتحتوي على عدد من الشخصيات البرلمانية وغير البرلمانيـة . وبعد أن قامت بجولات تمهيدية مختلفة لمشاهدة احوال البلاد العامة ، أعلنت عن رغبتها في سماع بيانات ممثلي العرب واليهود عن القضية الفلسطينية ، وحجج كلا

الفريقين ومطاليبها . وكادت النزعة السلبية الراسخة في نفوس العرب من قبل تؤدي الى سوء تفاهم جديد . اذ فكر زعماء العرب في البدء بمقاطعة هذه اللجنة وعدم اعطاء بيانات امامها ، ما دامت متمسكة بمبدأ معالجة القضية الفلسطينية على أساس وعد بلفور . لكن الروية عادت فتغلبت على التطرف ، وتحكم العقل بالعاطفة. فأجمع رأي الزعماء العرب على وجوب اغتنام الفرصة ، والتعاون مع اللجنة ، وابداء وجهات نظرهم امامها ، ومقارعة اليهود بالحجج الدامغة والبراهين القاطعة. ولقد كان هذا لعمري هو الحق والصواب .

بدأت اللجنة الملكية جلساتها بالاستماع الى بيانات كبار رجال الحكومه الفلسطينية من البريطانيين . وكان من بينهم المندوب السامي بالذات . فبسط هؤلاء الوضع الداخلي في البلاد ، الذي يكتنفه جو من التوتر الدائم بين العرب واليهود ، وجهود الحكومة المحلية في سبيل ضبط الادارة والامن ، وحرص السلطات البريطانية على القيام بالمسؤوليات المتعددة المتشعبة الملقاة على عاتقها ، في مثل ذلك الجو المكفهر .

وجاء بعد هذا ممثلو اليهود للادلاء ببياناتهم ، لان العرب كانوا لا يزالون حتى ذلك الحين مترددين في تقرير موقفهم تجاه هذه اللجنة واعمالها . وكان يتقدمهم زعيمهم الدكتور وايزمن بالذات . كما تلاه رئيس الوكالة اليهوديه ، وزعماء الاحزاب اليهودية المعتدلة والمتطرفة ، وسواهم من رؤساء المؤسسات اليهودية في فلسطين . فكان هؤلاء يجتهدون أولا في اثبات حقهم التاريخي في فلسطين ؛ ثم اثبات حقهم القومي ؛ ثم المطالبة بتحقيق التعهدات التي يزعمون انها قطعت لهم وانصرف الاخصائيون منهم بعد ذلك الى شرح مشروع « الوطن القومي » واظهار ما صادفه من النجاح - بزعمهم - حتى ذلك الحين ، وما سببه للبلاد عامة من الخير والرفاهية ، التي جنى ثمارها العرب واليهود على السواء . وكانت مطاليبهم تنحصر بتحقيق بناء الوطن القومي اليهودي في فلسطين ، وابقاء باب الهجرة الى هذه البلاد مفتوحا في وجه سائر يهود العالم . ومما هو جدير بالذكر ، أن جميع الشهادات التي عرضت على اللجنة الملكية من جانب اليهود ، كانت كلها منسقة منظمة ، يتمم بعضها بعضاً .

وتقدم ممثلو العرب بعد ذلك للادلاء ببياناتهم . وكان اول من مثل منهما امام اللجنة مفتي فلسطين السابق ورئيس المجلس الاسلامي الاعلى الحاج امين الحسيني وتبعه سائر رؤساء الاحزاب العربية ، ونفر من السياسيين والحقوقيين ، وكان دفاع العرب يستند اولا على المطالبة بتحقيق العهود التي قطعها الحلفاء للعرب في الحرب العالمية الماضية ، بتأسيس مملكة عربية موحدة من ضمنها فلسطين بالطبع . تلك العهود المسجلة في رسائل (الحسين — مكماهون) ثم انتقلوا بعد ذلك الى اثبات عروبة فلسطين الواقعية والتاريخية . كما اظهروا خطر استمرار الهجرة اليهودية بسبب عجز البلاد عن استيعاب اية زيادة من السكان ، واقتناص اليهود لمقادير كبيرة من الاراضي بوسائل شتى ، بحيث اصبحت الاراضي الباقية في ايدي العرب حالياً غير كافية لسد حاجاتهم وختم العرب مرافعاتهم هذه بالمطالبة بالغاء وعد بلفور ، ومنع الهجرة اليهودية الى فلسطين ، وتحظير انتقال الاراضي الى اليهود وانشاء حكومة عربية مستقلة .

مشروع التقسيم

بعد ما انتهت اللجنه الملكية من سماع بيانات الفريقين المتنازعين وجدت نفسها امام وجهات نظر متباعدة الغاية ، ولا يمكن التوفيق بينها قط . كما تبينت من التحقيقات الخاصة التي قامت بها ، أنه من المستحيل صيانة الامن في فلسطين اذا بقي هذا التناحر القومي قائما بين العرب واليهود . وهذا ما تبين لكل لجان التحقيق السابقة — لذلك رأت أنه من الضروري وضع حواجز حقيقية تفصل بين الفريقين المتنازعين ، اللذين يستحيل الجمع بينهما على صعيد واحد . كما انه من الضروري تحديد مدى وماهية « الوطن القومي » الذي نال اليهود وعداً بالمساعدة في ايجاده في فلسطين ، ففسروا هم ذلك الوعد بانه تعهد بتحويل فلسطين الى دولة يهودية يتمتعون فيها بحق السيادة والسيطرة .

اجتهدت اللجنة في ايجاد الحل الحاسم المنشود ؛ لكنها اخطات في الاجتهاد والتقدير مع الاسف اذ اتفق رأيها على « مشروع التقسيم » الذي اقترحت تنفيذه

ونشر تصميمه في اوائل سنة ١٩٣٧ ، وهو يقضي بان تقسم فلسطين الى ثلاث مناطق كما يلي :

(الاولى) المنطقة اليهودية — وهي تشمل الشقة الساحلية الممتدة بين حيفا ويافا ، يضاف اليها السهول المجاورة لحيفا ، الممتدة حتى عكا والناصرة ، ثم سهل ابن عامر الممتد شرقاً حتى بيسان ومجرى نهر الاردن .

(الثانية) المنطقة العربية — وهي تشمل ما وراء المنطقة اليهودية المشار اليها شرقا ، وتستمر من يافا حتى نهاية الحدود الفلسطينية جنوبا .

(الثالثة) المنطقة الدولية — وهي تضم مدينة القدس وما جاورها ؛ حيث توجد الاماكن المقدسة للديانات الثلاث ، الاسلام ، والنصرانية ، واليهودية مع فتح ممر حر ضمن هذه المنطقة يوصل بين المنطقة العربية وبين ميناء يافا .

وقد وضعت مخططات تفصيلية لتحديد كل منطقة من هذه المناطق ؛ وتنظيم علاقاتها مع ما جاورها ، مما لا مجال لسرده الان .

الا ان هذا المشروع كان نصيبه الفشل الذريع . ولم ينل موافقة اي فريق من الفرقاء المتنازعين . فاليهود من جهتهم لم يرضوا به لانه قضى عليهم بالانكماش ضمن دائرة محدودة ، هي بالواقع ما يملكونه بالوقت الحاضر من الاراضي والمستعمرات ولا تكفي هذه المنطقة لتحقيق مطامعهم الاشعبية ومشاريعهم الخيالية . اذ انها تضيق عن مدى « الوطن القومي » الذي ينشدونه ولا تستطيع استيعاب ملايين اليهود الذين يريدون حشدهم في البلاد لمكاثرة العرب والتغلب عليهم ، ولا تساعدهم على تحقيق شيء من برامجهم السياسية ، والقومية والاقتصاديه .

اما العرب فقد كانوا اشد سخطاً على هذا المشروع ايضاً ؛ اذ ليس من الممكن بحال من الاحوال التسليم بفصل اي جزء من اجزاء الوطن الغالي عن كيانه الرئيسي ، وتحويله الى منطقة يهودية صرفة ، يكون اليهود هم سكانها ، واسيادها واصحاب جميع الحقوق السياسية والتشريعية فيها . ثم كيف يستطيعون ان يأمنوا

جانب اليهود الذين سيحتشدون في قلب البلاد الفلسطينية العربية ، دون ان يكون عليهم ثمة رقيب ، فيبيتون الشرور للعرب ، ويكيدون لهم المكائد ، وهم تحت اسماعهم وابصارهم .

واما الحكومة البريطانية التي كان عليها ان تقول الكلمة الحاسمة في مصير هذا المشروع ، فقد اشترطت من اجل تنفيذه ، موافقة العرب واليهود عليه معاً . ولما رات رفض الفريقين له بوقت واحد ، لم تعد تتبناه بالطبع . لكنها تأكدت انه لابد لحل القضية الفلسطينية من وضع حد لمدى توسع اليهود الاستعماري ؛ وتدفق سيل المهاجرين منهم ، وتماديهم في التغلغل والسيطرة على مرافق البلاد مما جعل العرب في خوف دائم على مصيرهم ومستقبلهم . لكنها مع ذلك لم تتخذ اي تدبير فوري بعد اذاعة « مشروع التقسيم » يهديء سورة القلق والاضطراب التي كانت تعم القطر الفلسطيني بكامله . فكانت هذه العوامل كلها مدعاة لتجدد القلاقل في البلاد .

الكتاب الابيض

ترك مشروع التقسيم المقترح من قبل اللجنة الملكية ، صدى غير مستحسن البتة في فلسطين وسائر البلاد العربية ، كما اشرنا آنفاً . مما ادى الى تجدد الاضطرابات والثورة في فلسطين نفسها ، ثم الى تجدد توتر الرأي العام العربي بوجه عام . وقد حصل خلال سنتي ١٩٣٧ و ١٩٣٨ من الحوادث الخطيرة في فلسطين ما لم يحصل مثله من قبل قط . الا ان الحكومة البريطانية تبينت جلية الامر . فلم ترض ان تجازف بصداقتها القديمة التاريخية مع العرب وهبت لمعالجة الموقف بصورة اعم واقوى من ذي قبل . فبادرت الى سحب مشروع التقسيم ولم تعد تعتبر المشكلة الفلسطينية مشكلة محلية فقط ، بل اعتبرتها مشكلة قومية عامة ، تهم جميع العرب على اختلاف شعوبهم وديارهم ، كما يهتم بها اليهود في جميع انحاء العالم

لذلك وجهت الحكومة البريطانية دعوة الى جميع الدول العربية للتداول في شأن القضية الفلسطينية ، والسعي لايجاد الحل الملائم لها . فعقد مؤتمر برلماني عربي في

القاهرة افتتح في ٧ تشرين اول سنة ١٩٣٨ ، اشترك فيه مندوبو جميع الدول العربية المستقلة ؛ كما اشترك فيه ممثلون لبعض الحكومات الاسلامية ايضاً . فاتفق المؤتمرون على الدفاع عن عروبة فلسطين ، ثم التعاون مع الحكومة البريطانية على ايجاد الحل الواقعي المعقول لهذه المعضلة .

وفي شهر شباط عام ١٩٣٩ عقد مؤتمر دولي في لندن يعرف باسم مؤتمر المائدة المستديرة ـ اشترك فيه مندوبون من البريطانيين والعرب واليهود ، لوضع الحل المنشود للمعضلة الفلسطينية ؛ على ضوء وجهات النظر الثلاث

وكانت الدول العربية التي اشتركت في ذلك المؤتمر هي : مصر ، والعراق وشرقي الاردن ، والمملكة السعودية واليمن ، كما حضر وفد يمثل عرب فلسطين مؤلفاً من زعماء الاحزاب الوطنية ، ولم تشترك حكومتا سورية ولبنان في ذلك المؤتمر مع الاسف ، لانهما لم تكونا مرتبطتين مع الحكومة البريطانية أولا ، ثم لانهما كانتا تجتازان اشد مراحل الانتداب بلاء ومحنة بعد رفض الافرنسيين لمعاهدة ١٩٣٦ ثانيا وكان مندوبو اليهود ممثلي الجمعية الصهيونية العالمية وممثلي الوكالة اليهودية والاحزاب السياسية في فلسطين .

بدأت المفاوضات اولاً بين رجال الحكومة البريطانية من جهة ، وبين اعضاء الوفدين ؛ العربي واليهودي ، كل حدة ؛ من جهة اخرى ؛ وكان القصد من ذلك الاطلاع على وجهات نظر كل من الفريقين بمفرده ، ثم التمهيد للتأليف بينها ـ اذا كان ذلك ممكنا ـ لكنه ظهر أن الجمع بين وجهتي النظر غير ممكن بالواقع ؛ كما لم يمكن اجتماع ممثلي العرب واليهود في جلسة رسمية مشتركة من جلسات المؤتمر .

لذلك استمر المندوبون البريطانيون في مباحثة كل من الوفدين بمفرده وسماع مطاليبه وبياناته ووجهة نظره ، فراح اليهود يتشبثون بوعد بلفور ، ويدعون أنه يحق لهم بموجبه الهجرة الى فلسطين دون تقييد ، والتملك من الاراضي بقدر طاقتهم ؛ وتنمية وطنهم القومي الموعود الى أبعد حد ، وباية وسيلة كانت . أما

العرب فكانوا يستندون هم ايضاً الى التعهدات البريطانية المقطوعة الى المغفور له الملك حسين بن علي قبيل اعلان الثورة العربيـة عام ١٩١٦ ويطلبون بموجبها تأليف حكومة عربية مستقلة في فلسطين ، التي تعتبر جزءاً من الوطن العربي الاكبر ، كما كانوا يظهرون ان تمادي الهجرة اليهودية المطلقة الى فلسطين ، والسماح لليهود بالتملك وشراء الاراضي ، يهدد كيانهم القومي ، ويقضي على مستقبلهم في وطنهم الاصلي ؛ وبالنتيجـة يتنافى مع العهود المقطوعة لهم .

كانت نتيجة هذا المؤتمر الفشل بالطبع ، وذلك بسبب تضارب نظريات الفريقين الاصليين المتقابلين ، لكن الحكومة البريطانية التي تمثل الفريق الثالث فيه وجدت نفسها تقف موقفاً غريباً متناقضاً . فكلا الفريقين يستند الى عهود بريطانية في تأييد وجهة نظره التي يتخذها وتاييد مطاليبـه التي يتقدم بها كما يعتبر الحكومة البريطانية مسؤولة عن تحقيق مطاليبه هذه ـ اي تأييده ضد الفريق الاخر ـــ ! لذلك وجدت انه من الضروري ازالة هذا الغموض المتعلق بموقفها ومسؤوليتها على الاقل ، وتحديد ماهية ومعنى العهود الممنوحة من السلطات البريطانية الى كل من الفريقين المتنازعين قبل كل شيء

فاتجهت النية عند ذلك الى اعادة نشر رسائل الحسين ـ مكماهون بنصوصها الاصلية ، لتحديد التعهدات الممنوحة للعرب ، وايضاحها ، ثم تفسير وعـد بلفور بصورة رسمية ومفصلة ، لتحديد التعهد الرئيسي الممنوح لليهود وايضاحه . أمـا رسائل الحسين ـ مكماهون ، فيظهر ان نشرها لم يبد مناسباً آنذاك ، لانه بالطبع يستثير الجدل حول شؤون سياسية أخرى غير القضية الفلسطينية ، تتعلق بمصالح دولية متشعبة ؛ وأما وعد بلفور فقد اكتفي باذاعة تفسير جزئي له ـ وبصورة غير رسمية ايضاً ـ وهو أن ذلك التصريح الذي يتخذه اليهود اساسـاً لمشروع وطنهم القومي والدولة اليهودية العتيدة ، لم يتحدث عن دولة يهودية بل عن وطن قومي فقط ، ثم لم ينص على جعل فلسطين وطنا قومياً لليهود ، بل على ايجـاد وطن قومي لليهود في فلسطين .

وقد دل معنى هذا التفسير ـ او الاستدراك على الاصح ـ على أن الحكومة

البريطانية لم تتعهد لليهود بانشاء دولة لهم في فلسطين ؛ ولا بتحويل هذه البلاد برمتها الى وطن قومي لهم ؛ بل كل ما في الامر انها وعدت بمساعدتهم على التمركز في هذه البلاد ، كطائفة تستطيع ان تنشيء لنفسها كياناً خاصاً وتتمتع بجميع الحقوق المدنية والسياسية ، فاذا صح الاخذ بهذا القول ، اصبح من المفروض ان تقيد الهجرة اليهودية الى فلسطين بقيود الامكان والواقع . واصبح من المحتم أن لا يغدو اليهود اكثرية في البلاد ينازعون اهلها السيادة . وان لا يتاح لهم المجال لتملكها برمتها بفضل ما لديهم من قوة المال . واذا اعتبر هذا التفسير تفسيراً قانونياً صريحاً لوعد بلفور ، يهون ذلك الخطب الجسيم ؛ ويزول ما ينسب الى الحكومة البريطانية من التناقض والغموض في موقفها من القضية الفلسطينية .

* * *

على ان الحكومة البريطانية وجدت أن تفسير الوثائق التاريخية ومناقشتها فقط ، لن يكون كافياً لوحده على كل حال دون اتخاذ تدابير سياسية جديدة ، تضمن ايجاد الحل الحاسم المستطاع ؛ الذي يمكن أن يجمع بين طرفي النظريتين المتناقضتين لذلك قررت أن تضع نظاما سياسياً جديداً وثابتاً لفلسطين ، ينطبق مع واقع الحال ، ويصون مصالح العرب واليهود في وضعها الراهن قدر الامكان . وليس مثل هذا العمل بميسور . اذ رحم الله الشاعر العربي الحكيم ابن الوردي القائل :

« ان نصف الناس اعداء لمن ولي الاحكام هذا ان عدل »

في مثل هذا الجو الدولي ، أصدرت الحكومة البريطانية « الكتاب الابيض » المشهور في شهر آذار عام ١٩٣٩ . وقد ضمنته وجهة نظرها في حل القضية الفلسطينية . اذ وجدت انه من الضروري قبل كل شيء وضع حد للهجرة اليهودية التي لم تعد فلسطين قادرة على احتمال ازديادها ونتائجها . كما ارتأت أنه من الضروري انشاء حكومة وطنية في فلسطين ، يشترك فيها العرب واليهود معاً ، فتتولى هذه الحكومة مسؤوليات ادارة شؤون البلاد العامة ، ويعمل العرب واليهود ضمن هذا الجهاز الحكومي متعاونين لا متنازعين .

وتتلخص الحلول الرئيسية الواردة في الكتاب الابيض بما يلي :

اولا — أن يسمح بادخال ٧٥ الفاً من المهاجرين اليهود الى فلسطين ؛ اضافة الى عدد الموجودين منهم حاليـاً في البلاد ؛ وذلك خلال خمس سنوات من تاريخ اعلان هذه الوثيقة . فيصبح بذلك عدد اليهود يوازي ثلث مجموع السكان تقريباً .

ثانياً ـ خلال مدة السنوات الخمس الاولى التي تلي نشر الكتاب الابيض ، والتي تنتهي في آخر آذار من عام ١٩٤٤ ، تمهد الحكومة الفلسطينية الحاليـة السبيل لتأليف حكومة وطنية شرعية . ويشترك العرب واليهود معاً في هذه الحكومة العتيدة ممثلين فيها بنسبتهم العددية ؛ التى قدر أنهاستكون في ذلك التاريخ نسبة ٢ـ١

ثالثاً — بعد مرور عشر سنوات على تاسيس هذه الحكومة العتيـدة ، تنظر الحكومة البريطانية في مدى ما بلغته البلاد من التطور والاستقرار ، ليجري بعد ذلك الغاء الانتداب ، والاعتراف باستقلال فلسطين استقلالا تاما . وتمنح حكومتها اذ ذاك حق ممارسة جميع الصلاحيات ومظاهر السيادة ، ويترك للعرب واليهود انفسهم امر تقرير العلاقات بين بعضهم بعضا .

أما من جهة حق اليهود بالتملك وشراء الاراضي في فلسطين ، فقد قسمت البلاد الى ثلاث مناطق ادارية . وكانت المنطقـة الاولى هي تقريبـا التي اعتبرت منطقة يهودية بحسب مشروع التقسـيم السابق . وقد سمح لليهود بحرية التملك وشـراء الاراضي في هذه المنطقـة بدون قيد ولا شرط . أما المنطقة الثانيـة فهي ما جاور المنطقة اليهودية مباشرة في الساحل والداخل . وقد قيد حق انتقال الاراضي الى اليهود فيها بموافقة الحكومة المحلية . أما الثالثة فهي المنطقة الداخليـة والسواحل الجنوبية ، وقد حظر على اليهود شراء الاراضي فيها .

الا أن هذا المشروع الجديد قوبل حين صدوره بالرفض من اليهود والعرب على السواء . مع أنه والحقيقة تقال ؛ أفضل حل ممكن لهذه القضية المعقدة ؛ وخير وساطة بين المصالح المتنازعة المتضاربة ، واكثر مطابقة للواقـع . فهو من الوجهة الدولية العامة يضع حداً للوضع الحكومي الاستثنائي الذي لا يزال قائما

في فلسطين حتى الساعة ؛ ويضمن لهذه البلاد انشاء حكومة محلية ؛ والوصول الى الاستقلال بعد التدرج في مراحل انتقالية معقولة . ويشرك الفريقين المتنازعين في مسؤولية الحكم وادارة البلاد .

وأما من حيث الموازنة بين مصالح العرب واليهود ، فقد جاء اكثر اقترابا من الواقع ايضا . فهو من جهة اليهود يضمن لهم نسبة عددية لا بأس بها ـ أي نسبة ثلث مجموع السكان ـ وهي اقصى ما تستطيع البلاد احتماله . كما يضمن لهم الاستقرار الدائم في البلاد ؛ مع حق المساهمة في التشريع والسيادة ، بحسب نسبتهم العددية . وهذا ما لم يرض العرب أن يسلموا لهم به بسهولة . وأما من جهة العرب ، فهو يتفق مع مطالبهم الاساسية الى حد بعيد مع مراعاة وضع البلاد الراهن . اذ يضمن تحديد الهجرة اليهودية قبل كل شيء . ثم يشترط أن تظل نسبة اليهود ثلث مجموع السكان في البلاد . وبذلك ينجو العرب من أهم الاخطار التي تتهددهم ؛ وهي أن يصبح اليهود اكثرية في فلسطين في وقت ما ، فينتزعوا زمام السيطرة على البلاد ، ويشردون منها سكانها الاصليين .

على أن تجارب الايام غيرت موقف العرب من مشروع الكتاب الابيض الى حد كبير . فجعلتهم يقرونه مبدئيا ، ويعترفون أنه خير حل أولي للقضية الفلسطينية المعقدة . وربما كان استئناسهم وتوثقهم من حرص الحكومة البريطانية على المصلحة العربية العامة ـ الامر الذي ظهرت بوادره خلال هذه الحرب الطاحنة في عدة مناسبات ـ جعلهم اكثر اطمئنانا لهذا المشروع من ذي قبل .

أما اليهود فقد كانوا على عكس ذلك تماما . اذ لم تزدهم الايام الا نقمة على الكتاب الابيض ، واستنكاراً لمبادئه ومحتوياته . حتى انهم عند حلول المدة المقررة للشروع بتنفيذه ؛ هبوا يطالبون بالغائه بجميع ما لديهم من الوسائل والقوى . والانكى من ذلك انهم جنحوا الى سياسة العنف واساليب الارهاب ، بغية التخلص من هذه الوثيقة الدولية المفروض انها خير اساس لحل مسألة فلسطين .

وليس لنا الان أن نتبسط في تحليل مشروع الكتاب الابيض والتعليق عليه . لاننا سنعمد الى ذلك في مقام آخر من هذا الكتاب .

الخلاصة

يتبين القارىء الكريم ، من هـذا الفصل الذي قدمناه له ، موجز التـاريخ السياسي للقضية الفلسطينية ، منذ اقرار الانتداب البريطاني على هذه البلاد ، حتى انبثاق شرارة الحرب العالمية الثانيـة ، معروضا من خلال اعمـال لجان التحقيق البريطانية ، والبواعث التي أدت الى تأليف هذه اللجان ، والتقارير الرسميـة التي وضعت في تلك المناسبات فهو يستطيع أن يستنتج بالطبع امرين اساسيين :

(الاول) — ان مطامع اليهود القومية في فلسطين ، ادت الى نشوب نزاع دائم بينهم وبين العرب ، لا يمكن أن تخمد جذوته اذا استمر اليهود في غلوائهم ، لأن على نتائجه يتوقف تقرير مصير فلسطين ، ومجرى التاريخ العربي ، ومستقبل الاجيال العربية القـادمة لا في فلسطـين فقط ، التي هي جزء حيوي من الوطن العربي ، بل في هذا الوطن الكبير برمته .

(والثاني) — ان السياسة البريطانية التي نشأت في الحرب العالمية الماضية على اساس مجاراة العرب واليهود معا ، واشراكهما في مجهود الحلفاء الحربي معا في سبيل تحقيق آمالها القومية التي لا بد لها من أن تصطدم في تلك الدائرة الضيقة التي قدر أن تكون فلسطين ، قد تبينت بالنتيجة ما يلحق بالعرب من الغبن من جراء سياسة المجـاراة المشتركة هذه ، وتأكدت من أن المطامع الصهيونية التي تنوي تغيير شكل فلسطين التاريخي والجغرافي ، تؤثر على مصير البلاد العربية عامة ، لا على فلسطين فحسب . فبدأت تدريجيا بوضع الحدود والقيود للمطامع الصهيونية هذه ولاقرار نظام ثابت في فلسطين ، يتلاءم مع وضع البلاد الراهن ، وطاقتها ومؤهلاتها الطبيعية ، ومقدار ارتباطها بالكيان القومي والحقوقي ، والتاريخي لكلا الفريقين المتنازعين .

وقد دلت التقارير الرسميـة والفنيـة على أن مطالب العرب كانت على الدوام اكثر انطباقا على الحقيقة وواقع الحال . كما دلت التجـارب والتطورات السياسية لهذه القضية العصيبة ؛ أن العرب ـ بالرغم من اشتدادهم في المطالبة بحقهم والدفاع عن كيانهم ـ اكثر محافظـة على العهود ، وأشد تقيـداً بمقتضيات الظروف ؛ وبالنتيجة ، اصدق ولاء ووفاء رغم تقلب الاحوال .

مشروع الوطن القومي

الاسطورة اليهودية وعناصر الفشل الذاتي

اذا اتينا الان لتحليل « مشروع الوطن القومي » الصهيوني ومناقشته ، لن نعمد الى لغة العاطفة الصاخبة التي كانت تسيطر علينا في معالجة شؤوننا القومية والسياسية العامة طيلة عشرين سنة دون ان تسفر عن نتيجة فعالة . ولن نردد العبارات الحماسية من احتجاج وتشجيب ، اكثرنا من ترددها في كل مناسبة سلفت: اذ من الواجب علينا ان نبحث هذا الموضوع بلغة العقل والمنطق ، ونقرع الحجة بالحجة ، لا سيما بعد ان حوله اليهود الى عقيدة قومية تزداد رسوخا في نفوسهم والى مشروع سياسي دولي يعززونه بالوثائق الرسمية والمستندات التاريخية ، والى برنامج عملي يضعون له الخطط والمناهج ، في سبيل تحقيقه وانشائه .

عندما جئنا في اول هذا الكتاب للكلام عن ماهية القضية الفلسطينية وتحديدها السياسي والحقوقي ، قلنا انها بدعة دولية لم يسبق لها مثيل في التاريخ . واول تعريف نحاول ان نطلقه على مشروع « الوطن القومي » الصهيوني الان . هو انه اسطورة يهودية لا حقيقة واقعية .

فهو بحد ذاته غير قابل للتحقيق على النحو الذي يريده زعماء الصهيونية من عدة وجوه .

وهو غير مشروع من مبدأه لانه يبني على اساس اغتصاب حقوق الغير ...

وهو لا يقوم على اسس قومية ثابتة ، كما أنه يخالف كل عرف حقوقي او قانون دولي ...

وما هو بالواقع الا حلم ذهبي لدى يهود العالم ، نسجت خيوطه الاولى في اساطيرهم الدينية القديمة ، وتوارثوه جيلا عن جيل بدافع المحافظة والعصبية

والتقليد . فعلق في اذهانهم منذ القدم ؛ ثم تحول الى امنية دينية يعللون نفوسهم بالوصول اليها غير ان زعماءهم وقادة الرأي فيهم ، شرعوا بتحويل هذه الفكرة الى عقيدة قومية حديثاً ، يمكنهم ان يستغلوها اقتصاديا وسياسيا الى ابعد حدود الاستغلال . وكان ذلك منشأ هذا النزاع العنيف بينهم وبين العرب ، على نحو ما اوضحنا سابقاً .

اليهودية والقومية

اول ما يحتج به اليهود في سبيل تحقيق مشروع « الوطن القومي » انهم — على حد زعمهم — « شعب بلا وطن » ولكننا نرد على هذا الزعم الاولي بحجة اساسية هي : « ان اليهودية دين لا قومية » والادلة على صحة قولنا هذا موفورة في التاريخ القديم ، وفي وضع اليهود الراهن . وها نحن نبسطها فيما يلي :

عندما ظهرت الدعوة اليهودية لاول مرة في التاريخ ، ظهرت في البلاد العربية وكانت رسالة دينية بحتة ، تستنكر عبادة الاوثان وتعدد الالهة ، وتدعو الى الوحدانية ولم تكن تصطبغ بايه صبغة قومية او عنصرية ، شأن جميع الديانات السماوية ؛ وكان صاحب هذه اي عوة ، ونبيها الاول ، سيدنا ابراهيم الخليل (ع) الذي نشأ في اول عهده فيما بين النهرين ، ثم لما لم يجد في محيطه الاول قبولا لدعوته الجديدة ، اوغل في قلب الجزيرة العربية ، حتى استقر في بطحاء مكة المكرمة في الحجاز . فهو لا يعد غريباً عن التاريخ العربي اذن ، بمولده ونشأته وحياته .

واما هذا الدين الجديد ، فقد تهافت على قبوله سكان الجزيرة العربية من مختلف المناطق والقبائل . ولكنهم ظلوا يحيون مع اخوانهم وابناء عمومتهم سائر سكان الجزيرة العربية ، دون ان يظهر بينهم اي فارق عنصري قط . مما يؤكد ان هذه الدعوة الدينية الجديدة لم تكن لفئة من الناس دون اخرى ولم تظهر لتكوين عصبية قومية او خلق شعب جديد ، بل ظهرت كفكرة دينية ترمي الى اصلاح نواحي الحياة العامة لدى الشعب السامي الذي ظهرت لديه .

ثم تدفق اتباع هذا الدين الجديد من قلب الجزيرة العربية الى ارجاء الهلال الخصيب لا كعصبية قومية خاصة ، بل كجماعات سائرة مع موجات الهجرة السامية المتعددة ؛ التي اعتادت ان تخرج من داخل الجزيرة الى اطراف الهلال الخصيب ، سعياً وراء رخاء العيش .

اما هجرة اليهود الى مصر ؛ ثم خروجهم منها ؛ فهذه اسطورة يكسوها كثير من الغموض والشطط في الرواية ، لا سيما فيما يتعلق بعدد اليهود عند خروجهم من مصر ؛ وطريقة دخولهم الى فلسطين ، ولا يهمنا مناقشة تفاصيل هذه القصص على كل حال . لكن الذي يعنينا منها ، هو ان موسى (ع) نبي اليهودية الثالث الذي قام بتلك الحركة الجبارة لانقاذ ابناء مذهبه وذوي رحمه من اضطهاد الفراعنة ثم وجهه بهم شطر الجزيرة العربية مرة اخرى ؛ لاعتبارها مهدهم الاول ، ولكونهم من تلك القبائل السامية المستوطنة في هذه الجزيرة . ثم انه لم يصبغ لهم دياناتهم باية صبغة قومية حتى في ذلك الحين ، مع ان الظرف كان أكثر ملاءمة من اي وقت آخر . بل جاء قومه بتعاليم روحية سامية لا علاقة لها بفكرة العصبية والقومية قط .

وبعد الخروج من مصر ، والضلال في صحراء التيه دخل اليهود فلسطين . ودارت بينهم وبين اصحابها من الكنعانيين حروب طويلة ، شهدت الجزيرة العربية واطراف الهلال الخصيب ؛ كثيراً من امثالها يجري بين القبائل السامية المختلفة .

ولما استقر اليهود بفلسطين بعد هذا السياق الطويل — وما كانوا بالحقيقة سوى جماعات من القبائل السامية لا تختلف بشيء عن سكان الاقسام الباقية من الجزيرة العربية الا الدين — انشأوا لهم في تلك البلاد مملكة بلغت اوجها في عهد سليمان بن داود ، الذي بنى هيكل بيت المقدس المشهور . فهل نستطيع ان نعتبر انشاء مملكة سليمان هذه — التي لم تعمر طويلا كما هو معلوم — تأسيس تاريخ قومي لليهود ؟ ام هل يمكن ان نعتبر فلسطين ملكا لهؤلاء القوم بعدها الى الابد ؟

الجواب على هذين السؤالين سلبي بالطبع : لان ذلك العهد من التاريخ لم يكن يعرف معنى القومية بل العصبية فقط ، ثم إنه كان مليئاً بالمنازعات بين القبائل المنتمية الى قبيلة واحدة ، فالنزاع الذي حدث بين العبرانيين والكنعانيين في فلسطين لم يكن صراعا قومياً قط ، بل نزاعا عادياً ليس الا .

أما مملكة سليمان التي لم تعمر طويلا بحد ذاتها ـ فقد ظهر قبلها عدة ممالك سامية في اطراف الجزيرة العربية والهلال الخصيب ، منها الحثية والاشورية ؛ والكنعانية وظهر بعدها ممالك اخرى هي سامية عربية ايضاً !! مثل العمالقة ، والانباط ، والتدمريين . وبذلك تعتبر تلك المملكة ـ اليهودية الدين والسامية العنصر ـ حلقة واحدة من سلسلة طويلة من الممالك السامية في التاريخ القديم ؛ فهي لا تكون تاريخاً قومياً خاصاً اذن ، ولا تنشيء شعباً جديداً مستقلاً عما جاوره وعاصره .

ثم بعد انهيار مملكة سليمان ، وتعرض اليهود للسبي والتشتيت عدة مرات ، ظلت الدعوة اليهودية حية في البلاد العربية ، بصفتها رسالة دينية سماوية ، ولو أنها كانت تحمل صبغة قومية ، او ترمي الى خلق عصبية خاصة ، لكان حرياً بها ان تضمحل وتذوب بحكم المنطق . فيتضح لنا من هذا أن اليهودية منذ نشأتها ، وفي جميع ادوارها في التاريخ القديم ، كانت عبارة عن حركة دينية بحتة كالبوذية ، والنصرانية والاسلام . وكانت الجزيرة العربية مهدها ومسرحها في جميع تلك الادوار ، وقد ظلت حية كمذهب روحي ، حتى بعد انقراض المملكة السياسية التي كانت تنضوي تحت لوائها ، فاذا كان اتباع ذلك الدين قد تكتلوا حول بعضهم في دور من الادوار في سبيل اهداف سياسية معينة ، فانما فعلوا ذلك بدافع العقيدة المشتركة لا الاصل المشترك .

****

أما في التاريخ الحديث ، فان محاولة تحويل اليهودية من دين الى قومية ، هي من أغرب ما يتصوره العقل ، وادعاء اليهود الباطل بانهم « شعب بلا وطن » مما لا يوجد الى استساغته سبيل ، اذ لم يصدر مثل هذه الادعاء عن اتباع اي دين آخر من الاديان السماوية ، ولم تنشأ قومية في العصر الحديث على اساس الدين ،

او بالاحرى لم يسع ابناء اي دين من الاديان للتكتل تحت لواء دولة واحـدة ، او تحويل اي بقعة من بقاع الارض ، الى وطن خاص لهم ينبذوا سواهم منه . واذا كان ثمة بعض القوميات التي تعتبر الدين جزءاً من كيانها ، فلا يوجـد اية قومية تعتبر الدين هو العنصر الوحيد فيها .

لهذا اليس عجيباً حقاً ان يحاول اليهود انشاء قومية جديدة لهم ، يكون الدين هو العنصر الوحيد فيها ، والرابطة الوحيدة بين ابنائها ؟

ثم أن يدعوا أنهم غرباء في العـالم حيثما حلوا ، وانهم محرومـين من وجود « وطن » لهم يأوون اليه ؛ ثم ان يتطاولوا في دعواهم هذه الى المطالبة باقتنـاص بقعة ما من المعمور ، مأهولة بشعب عريق حي ؛ ليحولوها الى وطن خاص بهم ، بعد تشريد سكانها الاصليين عنها ؟

ان محاولة انشاء « قومية يهودية » هي محاولة غريبة من الاسـاس ، فاليهود جماعات وافراد ، يعيشون في مختلف بقاع الارض ، وينتسبون الى شتى الجنسيات والشعوب ، لذلك هم مختلفو الثقافات ، والطبائع ، والعـادات ، ولا يمكن لهم ان يشكلوا وحدة سياسية ؛ او اجتماعية ؛ أو قومية بالاحرى ؛ ولا ضير عليهم بهذا ؛ فهم ابناء دين واحد لا امة واحـدة ، والدين عالمي بالاصل ، وكل دين سماوي له اتباعه وانصاره في جميع انحاء المعمور .

أما اذا زعم تلاميذ هارتسل ووايزمن ، ان هذه الجماعات اليهودية المنتشرة في شتى انحاء الارض ، تنتسب الى اصل قديم واحد ، فهـذا ما يصعب على هؤلاء الاساتذة اثباته . كما أنه قد مر على ذلك الاصل المشـترك المزعوم من القرون والاجيال ، ما طمس معالمه تماماً ، وجعله اسطورة من الاساطير .

ومن أغرب الغرائب ايضاً ، أن يدعي اليهود أنهم « شعب بلا وطن » !

وكيف يستسيغون مثل هذا القول ، ويجرأون على الجهر به ، ويجاريهم فيـه بعض رجال العصر الحديث ، ولهم في اعظم بلدان العالم جاليات كبيرة راقية ، تتمتع بمكانة سامية ، ونفوذ قوي ، وثروات طائلة !

افلا يعد مثل هذا القول عقوقا بحقوق تلك الاوطان الرفيعة التي ينتسبون اليها ؟ واستخفافاً بالجنسيات السياسية التي يحملونها في جميع بلدان العالم ؟

واذا حق لليهود أن يدعوا ذلك في بعض البلدان الديكتاتورية الطاغية ؛ التي تدين بمبدأ التفوق العنصري ، والتي تحرمهم من بعض الحقوق المدنية والاجتماعية ، افيحق لهم ان يدعوا نفس هذه الدعوى وهم يستوطنون سواها من البلدان التي تعد حصن الديمقراطية الحصين ، ومضرب المثل في حماية الحريات الفردية والدينية على السواء ؟؟

ان فكرة تحويل اليهودية من دين الى قومية في العصر الحديث ، هي محاولة غريبة بالاصل ؛ ومقضي عليها بالفشل حتما ؛ لانها تغاير كل منطق وقانون ، وادعاء اليهود الزائف بانهم « شعب بلا وطن » هو مخالف للواقع ؛ وفيه عقوق ؛ بل خيانة ايضاً لكثير من البلدان الراقية الحرة ، التي ينتسبون اليها ويحملون جنسياتها لكنهم مع ذلك يعتبرون اتصالهم بها اتصالا موقتاً ، ويظلون دائماً يسبحون في الفضاء وراء حلمهم الذهبي ، الرامي الى تأسيس « وطن قومي يهودي » .

اليهود وملكية فلسطين

انتقل اليهود من دعواهم الاولى التي اثبتنا بطلانها آنفاً ـ انهم « شعب بلا وطن » ـ الى دعوى ثانية تمس العرب بصورة مباشرة ، وتجعل الحركة الصهيونية الحديثة هذه ، خطراً يهدد العرب دون سواهم من شعوب الارض ؛ ذلك انهم يزعمون أن فلسطين هي وطنهم القومي الاصلي ، لهذا يجب اعادتها لهم ، وانشاء دولة يهودية فيها تجمع شتات شعبهم المضطهد . وهم يحاولون أن يعززوا دعواهم الجانية هذه بمختلف المزاعم والاباطيل ، وينشطون في الدعاية لها ، ومطالبة الرأي العام الدولي بمناصرتها ، ويدفعون الدول الكبرى على العمل لتحقيقها .

ان هذه الدعوى قد خرجت بالقضية اليهودية من دور النظرية الى دور العمل ؛ ومن كونها مبدأً عاماً ، الى جعلها مسعى خاصاً ، هذا بالنسبة الى اليهود انفسهم ؛

اما بالنسبة لنا نحن العرب ، فقد اصبحت بذلك حرباً قومية علينا ، وصراع الحياة او الموت بالنسبة لنا ؛ لذلك يجب علينا ان ندحض هذه الدعوى بالوثائق الناطقة ، والادلة والبراهين القاطعة ، كما وجب علينا ان ندافع عن هـذا الجزء من الوطن الغالي بدمائنا وارواحنا .

لو جاز لنا وللرأي العام الدولي ، ان يسلم جدلا بان اليهود شعب بـلا وطن ؛ وانهم يحتـاجون الى وطن قومي لهم في هذا العالم ، فهل يجوز مجـاراة اليهود في تشبثهم باعتبار فلسطين العربية هي ذلك الوطن القومي المنشود ؟

كلا لعمر الحق !

وما هي الحجج التي يستند عليها اليهود في تشبثهم هـذا ؟ أهي حقهم التاريخي والقومي القديم في فلسطين ؟ أم كونها وطنهم الاول ! أم انها ملك لهم اغتصب منهم اغتصابا ؟ وها نحن على كل حال نفند جميع مزاعمهم فيما يلي :

يسمي اليهود انفسهم « شعب الله المختار » . وهذا لقب مضحك حقاً ، لكننـا لا نجادلهم فيه ... ويذهبون الى تسجيل تاريخ العالم على اساس تاريخهم الخاص . وما تاريخهم الخاص هذا سوى مجموعة من الاساطير والاقاصيص ، يكتنف اكثرها الغموض ، ويتهافت معظمها لدى أول مناقشة ، ولسنا نريد ان نتعرض لتاريخهم هذا الا فيما يعنينا فقط .

ويسمي اليهود فلسطين ايضاً « ارض اسرائيل » . ويعتبرونها وطنهم الاول كما يسمونها « ارض الميعاد » ويعتبرونها مرجعهم الاخير . وبحجة هذا الادعاء وذاك ، او في سبيل تحقيقها معاً ، يسعون الآن لامتلاكها من جديد . لكننا نريـد ان نناقش الشق الاول من هذا الموضوع الآن ـ تاركين الشق الثاني لارادة القدر ـ لنرى مدى انطباقه على الحقائق التاريخية .

لم يكن اليهود الاسرائيليون أول شعب دخل فلسطين ليسموها باسمهم ، ولم تكن هذه البلاد مجهولة فاكتشفوها ، ولا غامرة فعمروهـا ، ليحق لهم دعوى الاولوية في ملكيتها . بل كان دخول اليهود الاوائل الى فلسطين ، حدثاً عادياً في

التاريخ القديم ، وكان يوجد فيها قبلهم عدة سلالات سامية استوطنتها ، آخرها الكنعانيون ، الذين جرت لهم مع اليهود حروب طويلة دامية في سبيل امتلاك هذه البلاد ، واذا كانوا بالنتيجة قد تغلبوا على اخصامهم ، فانما ملكيتهم لفلسطين تكون اذن ملكية طارئة بحق الفتح ليس الا . فليس غريباً بعد هذا ان تزول هذه الملكية بخروجهم من فلسطين ، وان تؤخذ البلاد منهم كما استولوا عليها ، فيسقط لهم كل حق فيها .

اما اعتبار فلسطين أنها هي موطن اليهودية الاول ، فهذا خطأ آخر ايضاً لا يقره التاريخ . ذلك لان مؤسس اليهودية ونبيها الاول ، سيدنا ابراهيم الخليل (ع) ولد في بلاد ما بين النهرين ، ثم هاجر الى داخل الجزيرة العربية كما هو معلوم ، حيث استتم رسالته السماوية ، واقام اسس دينه الجديد ببنائه الكعبة المكرمة وقد استوطن بطحاء مكة ، وتزوج من اهل تلك البلاد . وبناء على هذا لا يعد غريباً عن العرب الاوائل ، ولا تعتبر دعوته وآثاره الدينية غريبة عنهم ايضاً . بل هما أبعد ما يكون عن الصهيونيه الجديدة ، ومبادئها الحديثة المبتدعة . واكبر دليل على هذا أن بعض المتدينين من العرب الذين رفضوا عبادة الاوثان ظلوا يعتبرون انفسهم احنافا على دين ابراهيم الخليل حتى جاء الاسلام فاعتنقوه .

اذن لم تكن فلسطين موطن اليهود الاول ايضاً ، كما انهم لم يكونوا هم اول شعب استوطنها . ولم تكن اليهودية الاولى سوى دعوة دينية ، لم تعرف لها وطناً ولا قومية ، ولا حدوداً جغرافية — اللهم الا الجزيرة العربية بمجموعها — فالدور الاول من تاريخ اليهودية لا علاقة له مع فلسطين لوحدها . وهو لا ينفصل عن التاريخ العربي القديم بصورة عامة . واذا اراد اليهود ان يستندوا الى حق تاريخي قديم لهم في ملكية فلسطين ، فمعنى ذلك انهم يردون نسبهم الى اصل عربي سابق ، وبكلام اوضح ، يعودون الى دور من تاريخهم يجعلهم متصلين مع العرب بالنسب وهم بذلك لا يستطيعون ان ينازعوا عروبة فلسطين بقوميتهم الصهيونية الحديثة .

اما المملكة اليهودية التي انشئت في فلسطين ، خاصة في عهد سليمان النبي ، فهي

يهودية ديناً ، وسامية عنصراً ونسباً . وكان ابناؤها ورعاياهم هم كابناء سائر القبائل السامية الاخرى ، الضاربة في مختلف انحاء الجزيرة العربيـة من حيث الاصل والعرق . واكبر دليل على ذلك ان هذه المملكة لم تنشيء لنفسها حضارة خاصة غير الحضارة السامية التي كانت معروفة في ذلك الحين . ولم تتميز عن سائر شقيقاتها من الدول السامية الاخرى الا بمظاهر الديانة فقط . ثم عندما توفي مؤسس هذه المملكة وعميدها ، لم يشعر رعاياها بوحدة قومية تجمع شملهم . لذلك عادوا الى عصبياتهم القبيلية الاولى ؛ فانقسمت تلك المملكة الى دويلات ، وسهل على الفاتحين اجتياحها ، وتهديم آثارها ، وسبي رعاياها .

وعلى كل حال ، فقد زالت المملكة وانطفأ تاريخها . وتوالى بعدها على فلسطين عدة دول من ساميـة وغير سامية . ثم ظهرت ديانة عالميـة جديدة في تلك البلاد ، هي النصرانية ، ولد فيها صاحب هذه الديانة ، السيد المسيح النـاصري ، وعاش فيها معظم حياته ، حتى صلب ورفع منها الى السماء . وترك فيها من الاثار الدينية المقدسة ما يفوق آثار اليهودية ومملكة سليمان .

وبعد ذلك كله ، ومنذ اربعة عشر قرناً خلت ، خرجت جيوش الفتح العربي من قلب الجزيرة تحمل راية التوحيد ورسالة محمد بن عبد الله (ص) فحررت جميع اجزاء الوطن العربي الكبـير من كل حكم اجنبي . وكانت فلسطين بطبيعة الحال في جملة ما تحرر . فانضمت بذلك الى حظيرة الوطن الاكبر وطبعت بالطابع العربي الخالد ، وقامت فيها آثار عربية باذخة مقدسة من دينية وتاريخية وشاء الله سبحانه وتعالى ان يشرفها بنصيب وافر من اسس الديانة الاسلامية ايضا . فكانت اولى القبلتين ، وثالث الحرمين ، كما كانت المركز الرئيسي لمعراج النبي العربي الاكرم عليه الصلاة والسلام .

وعمر العرب فلسطين اتم تعمير بعد ذلك ، وراحوا يذودون عن حياضها ، ويدفعون عنها كل غاز ومعتدي . وحسب التـاريخ من العرب تفانياً في سبيل الدفاع عن هذه البقعة الغاليـة من وطنهم ، ما اظهروه من بـلاء

وثبات في الحروب الصليبية التي امتدت زهاء ثلاثة قرون كاملة ، والتي كانت اوروبا باسرها تدفع خلالها الحملة تلو الحملة ، من اجل زحزحة العرب عن فلسطين ، لكن دون جدوى

هذا هو سجل ملكية فلسطين ، الذي يدعي اليهود ان لهم فيه حق الافضلية: بسطناه على قدر ما يساعد المقام ، ليتبين الرأي العام الدولي تهافت الدعوى اليهودية . اذ كيف يجوز لهم ان يدعوا الاولية في ملكية فلسطين ، في حين ان دعوتهم الدينية ظهرت خارج هذه البلاد ، ونمت خارجها ايضاً . وفي حين انهم عندما دخلوا فلسطين لاول مرة في التاريخ ، لم يكونوا سوى دخلاء مجتاحين ، ولم يتوطنوا الا بحق الفتح .

ثم اذا صح لهم المباهاة بهذا النوع الذي يدعونه من الملكية القديمة ، فكيف يحق لهم منافسة العرب بها !! اذ لم يكن قد ظهر في ذلك الحين ثمة فوارق قومية حاسمة بين مختلف العناصر السامية ، لاسيما بين العبرانيين والعرب . ولا ثمة فوارق جغرافية ثابتة للتفريق بين مرابع الهجرات السامية من قلب الجزيرة العربية الى الهلال الخصيب . ثم اذا سلمنا جدلا بانه يحق لاحفاد العبرانيين القدماء بتجديد المملكة اليهودية في فلسطين ؛ فهل يعتبر الصهيونيون الحاليون ، الذين ينتسبون الى مختلف شعوب الارض وجنسياتها ، هم اصحاب ذلك الحق المزعوم ؟؟

واخيراً ، اذا صرفنا النظر عن جميع هذه النقاط ، واتينا لمناقشة واقع الحال ، نسأل اليهود دون سواهم ، هل كان العرب هم المسؤولين عن هدم المملكة اليهودية في فلسطين ؛ ليطالبوهم بالغرم الان ؟ ام هل اجلي الفاتحون العرب اليهود عن فلسطين حتى استوطنوها ، ليعود هؤلاء فيسعوا لاجلاء العرب عملا بالمقابلة بالمثل ؟

ثم نسأل قضاة القانون الدولي بعد ذلك ، هل يمكن لهذا الحق اليهودي المتهافت مبدئيا ، والدارس عملياً ، ان يطغى على الحق العربي الراهن ، المؤيد بالادلة الحية ، والملكية الواقعية ؟

ان دعوى اليهود في ملكية فلسطين ، لا تستند الى اية حجة او اثبات . فقديمها

متهافت مضطرب ، وحديثها اعتدائي ومبتدع . واذا كان اليهود يصرون على اعتبارهم شعب بلا وطن ، وعلى ضرورة انشاء وطن قومي لهم في العالم ؛ فعليهم اذن العدول عن اسطورة امتلاك فلسطين ، والتفتيش عن سواها من بقاع العالم ، تكون اوسع مساحة ؛ واكثر قابلية على استيعاب المهاجرين ، وبحاجة الى جاليات جديدة تستوطنها وتستعمرها.

تفسير وعد بلفور

لقد سبق لنا الاشارة الى شعور اليهود بعجزهم عن تحقيق مشروع الوطن القومي ، اعتماداً على قوتهم الخاصة . وانهم لم يجدوا بداً من الاستناد الى احدى الدول العظمى ، والحصول على ضمانة منها لحماية مشروعهم هذا . لذلك اتجهوا نحو الحكومة البريطانية ؛ وحملوها على تبني فكرتهم هذه قبل الحرب العالمية الاولى ، وحصلوا على « وعد بلفور » الشهير ، الذي عدوه اهم ظفر سياسي لهم ، واقوى ضمانة دولية لحماية مشروعهم ، على نحو ما ذكرنا في اول هذا الكتاب .

لكنهم بالواقع اشتطوا كثيراً في تقدير هذا الظفر ، وبالغوا في تعظيم تلك الوثيقة التي حصلوا عليها ؛ وراحوا يقولون على لسان السلطات البريطانية ما لم تقله قط ، ويفعلون باسم الحكومة البريطانية المنتدبة على فلسطين ، مالا علم لها به من قبل ، ولا ينطبق مع سياستها الحقيقية وضميرها الحي . ويزعمون ان كل ذلك هو : في سبيل تحقيق وعد بلفور . حتى اصبح هذا الموضوع ، ومغالاة اليهود في تأويله لمصلحتهم ، من اهم العوامل التي ادت الى اثارة شعور العرب ، وكادت تعكر صفو العلاقات الودية القديمة بينهم وبين بريطانيا .

الا ان هذا التصريح الخطير الذي اعتبره العرب وثيقة سوداء تشوه وحدتهم وقضيتهم الوطنية ، واعتبره اليهود حجر الزاوية في بنيان وطنهم القومي لم يدرس دراسة حقوقية مفصلة قط ، ولم يصدر من قبل السلطات صاحبة العلاقة أي تفسير رسمي يبين حقيقته ويحدد مداه ، الا بعض ما اذيع حوله من التصريحات الصادرة عن الدوائر البريطانية في عام ١٩٣٩ ، قبيل نشر الكتاب الابيض ، وقد

سبق أن أشرنا اليها في موضع آخر من هـذا الكتاب ، لذلك نرى ان نتناوله بالبحث في هذا المقام ، لنرى ما هي قيمة هذا الوعد الحقيقية بالنسبة الى اليهود ، وما هو تأثيره بالنسبة الى العرب .

لقد جاء في هذا التصريح المذكور ، الصادر باسم الحكومة البريطانية على لسان وزير خارجيها آنذاك ، اللورد بلفور ، ما يلي :

« ان حكومة جلالتـه تنظر بعين العطف الى انشـاء وطن قومي لليهود في فلسطين . وسوف تبذل ما في وسعها لتحقيق هذه الغاية . ومن المفهوم انه لن يعمل شيء قد يضر بالحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية الموجودة في فلسطين ، ولا بالحقوق السياسية التي يتمتع بها اليهود في أي بلد آخر » .

نرى من تدقيق النظر في هذا التصريح ، وللوهلة الاولى ، انه ملىء بالتحفظات وكثير القيود والحدود . فالحكومة البريطانية لم تتعهد بانشـاء الوطن القومي ، ولم تضمنه . وانما هي تنظر بعين العطف اليه فحسب . ثم ان هذا (العطف) المنصوص عنه بالذات لا يرمي الى تحويل فلسطين برمتها الى وطن قومي يهودي ، بل يسعى لانشـاء وطن قومي لليهود في فلسطين . بمعنى ان هـذا الوطن العتيـد المزعوم ، سيكون ـ اذا تم تحقيقه ـ جزءاً في كل بالنسبة الى فلسطين .

ثم ان هذا التصريح لم يخل ايضاً من تحفظات واضحة ، حول وجوب صيانة حقوق الغير . اذ يقول : من المفهوم انه لن يعمل شيء قد يضر بالحقوق المدنيـة او الدينية للطوائف غير اليهودية الموجودة في فلسطين . وهذا يوضح بصراحة ، ان السلطة التي اصدرت هذا التصريح تقدر حقوق سكان البلاد الاصليين اتم تقدير . وتعلم انه اذا طالب اليهود بصيانة ميراثهم الخاص في هذه الارض المقدسة ؛ فان لسواهم من الطوائف ما يجب صيانته ايضاً ، ولا يمكن ان يتخلى عنه ذووه . وهي لن ترضى ايضاً ان يطغى الحق الدخيـل على الحق الاصيل . وبكلام اوضح ، لا توافق على تهويد البلاد باسرها . ولا على تحويل فكرة « الوطن اليهودي »

الى مشروع « دولة يهودية » تجعل اليهود هم الطبقة الحاكمة في البلاد ، واصحاب الحق في التشريع ، ليتصرفوا بعد ذلك بمقدرات السكان الاصليين كيفما شاؤوا و تمكنهم من تجديد آثارهم الدينية القديمة الدارسة على اطلال الاماكن الاسلامية والمسيحية المقدسة في البلاد .

وهناك ناحية اخرى من نواحي التحفظ يتضمنها هذا التصريح ايضاً . وهو ان الوطن القومي اليهودي المزعوم في فلسطين ، يجب ان لا يضر بالحقوق السياسية التي يتمتع بها اليهود في أي بلد آخر . والذي نستطيع أن نستنتجه من هذا ، هو أنه ليس جميع اليهود في العالم يرغبون بانشاء الوطن القومي المزعوم . وان البعض منهم يشعر أنه يتمتع بحقوق ، ومزايا ، ونعم في البلاد التي ينتسب اليها حالياً ، تزيد عما يمكن أن يجنيه من ذلك الحلم الذهبي من الخيرات . وحتى اليهود أنفسهم اذن غير متفقين في الرأي ؛ أو في المصلحة على الاقل ، بشأن انشاء وطن كامل لهم ، يصبح حجة للدول التي ترغب التخلص منهم ، لاكراههم على التخلي عن حقوقهم لديها ، أو الانتساب جبراً الى الدولة اليهودية ، أو الوطن القومي اليهودي ، القائمة اسسه على رمل .

هذه هي اذن حقيقة ذلك التصريح الخطير ، الصادر عن الحكومة البريطانية بلسان وزير خارجيتها اللورد بلفور آنذاك ، نرى بعد تحليله وتفسيره أنه لا يتعهد لليهود بانشاء وطنهم القومي المزعوم ؛ بل ينظر الى مشروعهم هذا بعين العطف ؛ ولا ينص على تحويل البلاد برمتها الى وطن يهودي ، بل على انشاء ذلك الوطن المنشود في جزء منها ، ويشترط حماية الحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية الموجودة في فلسطين ، لكي لا يتمادى اليهود في مغالاتهم ، ويستأثروا بكل حق تاريخي او أثر قومي بفلسطين لانفسهم فقط .

على ان للعرب رأياً سلبياً آخر في هذا التصريح ؛ هم على حق فيه ايضاً . فهم يعتبرونه غير مشروع اصلا ، ولم يعترفوا به ، ولا أقروا اي ترتيب سياسي يستند اليه ، وحجتهم في ذلك انهم هم اصحاب الحق في تقرير مصير بلادهم . وانهم خاضوا

غمار الحرب العالمية الاولى الى جانب الحلفاء على اساس التعاون المشترك ، والمساهمة في تحرير البلاد العربية باسرها ومنح العرب حريتهم واستقلالهم وسيادتهم في اوطانهم فكيف يجوز لاية دولة اجنبية ان تعطي عهوداً من هذا النوع لجاليات او شعوب اجنبية أخرى ، خلافاً لارادتهم و رغبتهم ، وبدون موافقتهم او اطلاعهم ، لذلك كان في طليعة مطالبهم القومية دائماً ، وجوب الغاء وعد بلفور ، لانه غير قانوني وعدم البحث باي حل سياسي للقضية الفلسطينية على اساس هذا الوعد .

عناصر الفشل الذاتي

أظهرنا في الصفحات السابقة كيف أن مشروع الوطن القومي المزعوم ، الذي يحلم اليهود بانشائه في فلسطين ، لا يقوم على اساس قانوني ، ولا يستند الى حق مشروع ؛ وها نحن نظهر فيما يلي ، عناصر الفشل الذاتي التي يحتويها المشروع بنفسه ، والتي تجعل هذه الاسطورة اليهودية غير عملية ، وغير قابلة للتحقيق بحد ذاتها .

برج بابل : اصبحت فلسطين خلال العشرين سنة الاخيرة ، اي بعد تدفق سيول المهاجرين اليهود اليها من مختلف اقطار العالم ، اشبه شيء ببرج بابل ، ذلك لان الحركة الصهيونية التي ترمي الى انشاء وطن قومي في فلسطين ، ارادت قبل كل شيء ان توجد « شعباً » يهوديا في البلاد . لذلك راحت الجمعيات اليهودية العالمية تجمع شذاذ بني صهيون من مختلف ارجاء الارض ، وتقذف بهم الى فلسطين الموجة تلو الاخرى ؛ فجاء هؤلاء خليطاً متنوعاً مضطرباً ينتسب كل منهم الى دولة ، ويتكلم بلسان خاص ، ويحمل من العادات والثقافة ما لا يعرفه الآخرون . كما أن هؤلاء المهاجرين ينتسبون ايضاً الى اقاليم جغرافية مختلفة ، مما يجعل امتزاجهم في بيئة واحدة مشكلة يصعب حلها بسهولة .

وما أن استقر هؤلاء المهاجرون في « ارض الميعاد » حتى تلاشت خيوط احلامهم الذهبية ، وفتحوا عيونهم على واقع الحال فشعر بعضهم بصعوبة التفاهم

مع البعض الآخر ، لان معظمهم لا يعرف العبرانية ، ولم يمكنهم ان يمتزجوا الا خلال ساعات العمل الاجباري المحدودة ، التي كانت تعدها لهم جمعياتهم الرأسمالية والسياسية . ولم يكن يؤلف بينهم سوى الشعور بانهم كلهم غرباء في هذه البلاد التي يعملون لتحويلها الى وطن قومي دائم لهم .

الا ان الكثيرين منهم ضاقوا ذرعاً بهذا النمط من الحياة ، ويئسوا من مواصلة السعي وراء ذلك الحلم الذهبي . فكان بعضهم لا يلبث ان يعود الى البلاد التي جاء منها ، والبعض الآخر - وهم طبقة العمال الذين لا يملكون رأس مال خاص للعودة - كانوا بين الفينة والفينة ينفجرون ساخطين ناقمين على تلك الدعاية الكاذبة التي غررت بهم وأخرجتهم من مواطنهم الاولى ، وقد حصلت عدة حوادث من هذا النوع ، خاصة بين عام ١٩٣٢-١٩٣٥ .

فكيف يمكن تأليف شعب من هذا النوع ، يختلف ابناؤه في البيئة ، والمنشأ والعادات ، واللغة ايضاً ؟

لقد حاولت الوكالة اليهودية العامة في فلسطين ان توجد الجواب على هذا السؤال . وذلك بأن سعت الى تعميم اللغة العبرية ، كوسيلة اولى لايجاد رابطة مشتركة ، واجتهدت في تعليمها للاحداث بصورة عامة ومطلقة . ثم انصرفت الى ايجاد منظمات متنوعة للاعمال ، يصهر فيها هذا الخليط المضطرب من البشر في بوتقة واحدة من العمل ، وتوجهه في اتجاه واحد من الحياة . املا ان يخرج من هذا المزيج العجيب مجموعة منسجمة مع الزمن .

لكنه لما كان برنامج الصهيونية بالاصل ، يرمي الى تعزيز الهجره اليهودية الى فلسطين باستمرار . فان هذا سيقتضي دخول عناصر غريبة متنوعة على الدوام . وذلك يستوجب مواصلة عملية الصهر الداخلي مدة من الزمن غير يسيرة ، قد لا تقل عن نصف قرن . فهل يتصور اليهود « الحكماء » ان العالم سيقف بانتظارهم طول هذه المدة ، ريثما يكونون انفسهم تكويناً جديداً ، ويخلقون في فلسطين ذلك « المولود المنتظر » وهو « شعب الله المختار » ! هذا عدا عن ان المقاومة العربية ستزداد ازاءهم شدة وصلابة مع تمادي الايام .

ضيق المدى الحيوي : من أهم العوامل التي تجعل مشروع الوطن القومي الصهيوني هذا غير قابل للتحقيق من ذاته ـ اضافة الى العوامل الخارجية والقانونيـة ـ هو ضيق مداه الحيوي بالنسبة لعدد اليهود في العالم من جهة ، وعجزه عن الاكتفـاء الذاتي من جهة أخرى . فلا يمكن لبلاد ضيقة بمساحتها ومحدودة الموارد بطبيعتها ، مثل فلسطين ، ان تؤلف وطناً كاملا يعتمد على ذاته فقط ؛ ولو استطاعت فلسطين ان تضمن كفايتها الذاتية ـ الى حد ما ـ بعد خلق موارد جديـدة فيها ووجود شعب نشيط يستثمر كل شبر من اراضيهـا استثماراً تاما ، فانها لن تكون كافيـة للشعب اليهودي الذي يبلغ عدد افراده في العالم حوالي عشرين مليوناً

نعم ، ان فلسطين هي بحد ذاتها ايالة صغيرة من الارض ، كانت تـابعة لولاية سورية في عهد العثمانيين وهي لا تزيد بمساحتها عن مساحة ولاية صغيرة من الولايات المتحدة الاميركية ، وتعتبر اصغر مساحة من اية دولة في العـالم بالوقت الحاضر ، فهل يمكن ان يخلق منها دولة مستقلة ترضي طموح الصهيونيين القومي والاقتصادي؟

ثم ان هذه البلاد هي زراعية الاصل ، ولا تعتمـد على مورد هام من موارد الثروة الطبيعية سوى انتاج اراضيها الصالحة للزراعة ، ولا تزيد مساحة هذه الاراضي برمتها عن عشرة ملايين دونم تقريباً ـ اي بقدر مساحة محافظة الجزيرة في شمـالي سورية ـ وثلث هذه الاراضي صخري او جبلي ، يعتبر دون المستوى العادي من حيث قابلية الانتاج الزراعي . وقد تملك اليهود حتى الان ما لا يقل عن ثـلاثة ملايين دونم تقريباً ؛ تحتوي على أهم المناطق السهلية الممتازة في البـلاد ، وتؤلف ما يعـادل نصف الاراضي الزراعية المستثمرة استثماراً تاما . ولما تـدفقت سيول المهاجرين اليهود الى فلسطين في السنوات العشر الاخيرة ، واصبحت نسبة السكان فيها بمعدل ١٤٤ شخصاً في الميل المربع الواحد ، ظهر عجز البلاد عن الاكتفاء الاقتصادي ؛ وها هي الان ـ في زمن الحرب الحاضرة ـ تعاني اشـد الازمات في تأمين المواد الغذائية لسكانها ، فماذا تصبح حالتها اذن لو فتح باب الهجرة اليهودية على مصراعيه ، وتضاعف عدد السكان بضع مرات على نحو ما يرجو زعماء الحركة الصهيونية الحديثة ان يكون !؟

اما التعلل بخلق موارد اقتصادية جديدة للبلاد — بفضل ذكاء اليهود المالي والاقتصادي !! فهذا وهم بعيد التحقيق ، فالثروة المعدنية في فلسطين تكاد تكون معدومة . وما يستخرج من المواد المعدنية والكيمائية في منطقة البحر الميت لايعتد به . اما ايجاد حركة صناعية نشيطة في البلاد فهذا امر مشكوك بنجاحه ايضاً . نظراً لفقدان المواد الاولية ، وخلو البلاد من الخبراء الفنيين ، والعدد الكافي من العمال الصناعيين . واذا كان اليهود يفكرون بادخال رؤوس الاموال الكافية والعدد اللازم من الخبراء والعمال الاختصاصيين ، ثم استيراد المواد الاولية من الخارج ايضاً ، بغية خلق حركة صناعية مزيفة في البلاد ، فهذه محاولة لا يجهل حقيقة مصيرها ونتائجها احد من ذوي العقول !

لذا نجد ان فلسطين بحد ذاتها لا تملك المؤهلات الذاتية الكافية لخلق دولة تامة فيها ، تستطيع ان تنشيء نفسها بنفسها ، وتنمو وسط محيط يضطرم بالعداء لها ، كالدولة اليهودية الموهومة التي يحلم بها دعاة الصهيونية الحديثة . فهي اضيق نطاقاً من حيث المساحة الجغرافية ، وهي اعجز عن الاكتفاء الذاتي من حيث كمية الموارد الطبيعية وتنوعها .

واذا افترضنا انه من الممكن خلق الاعجوبة ، وانشاء دولة كاملة في فلسطين ووطن قومي يهودي ، يقومان على التبرعات والهبات ، والمساعدات الاقتصادية والتجارية التي تدعمها من الخارج ؛ فهل يمكن لمثل هذا الوطن المصطنع ان يكفي طموح اليهود القومي والاقتصادي ؟

ان عدد اليهود في العالم يقرب من عشرين مليون شخص . ولا يمكن لفلسطين — مع مجاراة اشد البرامج الصهيونية تطرفا — ان تستوعب اكثر من عشرين بالمئة من هذا العدد . وسيقضى على هؤلاء الذين سيقدر لهم ان يكونوا رعايا الدولة الاسرائيلية المنشودة ، ان يكونوا من الطبقة الدنيا ، وان يعيشوا بالتقتير والتقنين فهل يمكن ان يؤدي هذا الى رفع معنويات سائر يهود العالم ، وبث روح العزة والكرامة ، والغرور القومي في نفوسهم ، والتعويض عما يلحق بهم من الاذى في بقاع العالم الاخرى ؛ برؤية اسم لدولة يهودية على الخريطة ؟؟ ومن من اليهود

المتنفذين في العالم يرضى ان يتخلى عن مركزه في الدولة الراقية ليأتي ويستوطن في ارض اسرائيل ؟!

ثم لو فرضنا ان استقر اليهود في فلسطين لا كلاجئين فقط ، بل كأسياد مطلقي السلطة والحرية ، وانطلقوا في تفجير موارد الثروة الجديدة من مجاهيل تلك البلاد واعماقها ، بما لديهم من القوة المالية والمهارة الاقتصادية ، فماذا يستطيعون ان يخلقوا من المشاريع الكافية لتشغيل اي جزء — مهما كان قليلا — من رؤوس الاموال اليهودية الضخمة المبثوثة في جميع اسواق العالم .

وهكذا نرى ان حلم اليهود الذهبي هذا بانشاء وطن قومي لهم في فلسطين ، اذا عرض على اليهود انفسهم باحسن صورة واقعيه يمكن ان ينتهي اليها عملياً ، لتبينوا أنه لن يحل شيئاً من مشاكلهم العامة ، ولن يخلق لهم كياناً قومياً ، ولا سياسياً او اقتصاديا يحقق لهم ما يصبون اليه .

وطن ام مستعمرة ؟

هذه هي اسطورة الوطن القومي الذي يحلم به الصهيونيون ، وتسعى حركتهم الحديثة الى الباسه لباس الحقيقة . اظهرنا ما فيها من باطل وزيف ، وكشفنا عن نقاط الضعف الداخلي التي ينطوي عليها المشروع ايضاً ، مع صرف النظر عن التبسط في عرض الفكرة العدوانية المبطنة فيه ، واغتصاب حقوق الغير بصورة لا يقرها ضمير او قانون . وقد يتساءل القارىء بعد ذلك عن الاسباب والعوامل ، التي تدفع زعماء الصهيونيين الى مواصلة السعي وراء هذا الحلم المنشود ، والتشبث بهذا الوهم الباطل ، والمضي في مغالطة الحقيقة . وقد يتصور ايضاً انه لا يمكن لاولئك الجهابذة الدهاة ان يندفعوا وراء سراب خداع ، ويتشبثوا بمثل هذه الصفقة الخاسرة .

وجوابنا على ذلك ان زعماء الصهيونية الاصليين غير غافلين عن كل هذه الحقائق بالطبع . ولكنهم اندفعوا في هذه المغامرة الواهية لسببين رئيسيين :

(الاول) — انهم كانوا يعتقدون ان تحقيق هذا المشروع امر يسير للغاية فقوة المال اليهودي تضمن لهم تملك فلسطين برمتها بسهولة تامة ، وفي وقت قصير وضعف العرب المعنوي والمادي يسهل عليهم تأسيس الدولة اليهودية المنشودة دون كبير عناء الا انهم منذ عام ١٩٣٠ تقريباً بدأوا يستيقظون على ضوء الحقائق المجردة فرأوا ان الوطنية العربية لن يلين جماحها ، ومقاومة العرب تزداد شدة وصلابة مع الزمن . وان برامجهم الوهمية التي كانوا يضعونها من قبل لامتلاك فلسطين بقوة المال وغيره ، ذهبت معظمها ادراج الرياح ايضاً . وما حققوه من التوسع الاولي والنجاح في باديء الامر ، لم يكن الا فلتة ومفاجأة ، لن يتسنى لهم مثلهما مرة ثانية .

(والثاني) — ان اولئك الزعماء لا يهمهم كثيراً التدقيق في مستقبل الوطن القومي ، وامكانياته الصحيحة ، ومصيره الحقيقي . لانهم لا يريدونه «وطناً» بالمعنى الصحيح المعروف ؛ يجمع شمل الشعب اليهودي برمته ، ويعود اليه حتى الاثرياء والعلماء واصحاب المراكز الدولية السامية منهم . بل هم يريدونه بمثابة « مستعمرة » يهودية ، يحشدون فيها الشذاذ المتشردين منهم ، ويرسلون اليها العيال والحثالة . ثم يأوي اليها اللاجئون والمضطهدون في البلدان الاخرى . فيعيش هؤلاء كما يتيسر لهم ويمدونهم هم بالاعانات والهبات . ثم يكدحون في الارض جهدهم لاستثمارها ويعملون كالسوائم في المصانع التي ينشئها لهم كبار المتمولين المقيمين خارج فلسطين .

اما الطبقة العليا من ارستقراطية اليهود ، وكبار متمولهم ، واصحاب المراكز السامية في الدول العظمى الحرة ، فان هؤلاء لن يتنازلوا عن تلك النعم التي يتمتعون بها . بل سيظلون دائماً في ابراجهم العاجية . ويتلذذون ان يروا لهم وراء البحار دولة هي دولتهم ، وبلاداً تحمل اسم شعبهم . كما تطلق اسماء الافراد منهم على شوارعها وقراها أيضاً . وسيدفعون اليها بكل فقير ومعيل من ابناء ملتهم كي لا يظل يتسكع امام اعينهم ، ويسيء الى كرامتهم ورفعة منزلتهم . ثم يعتبرونها ملجأ لكل من تضيق به بلاده الاصلية ومستقراً للشذاذ والفوضويين — حتى

وللارهابيين أيضاً ، كما اثبتت الحوادث الاخيرة . ومن السهل على اولئك السراة وارباب المقامات العليا ، ادارة تلك المستعمرة النائيـة من وراء الستار ، وخلق التيارات السياسيه فيها كما يريدون ، واقامـة مصانع من فضلات رؤوس اموالهـم ، تندس منتجاتها الى اسواق الشرق الاوسط وبعض سواحل البحر المتوسط للمضاربة او المنافسة ، او لاي غرض آخر .

هذه هي حقيقة « الوطن القومي » الصهيوني والاغراض التي يتوخاها زعمـاء اليهودية العالمية من ورائه . وقد يكون لهم ثمة اغراض دولية اخرى ، تخفى على أدق البصائر ايضاً . أفمن أجل هذه الاحابيل يصح التسـاهل في تشريد شعب آمن حي عريق في الحضارة ، عن وطنه الاصلي التاريخي ليصبح ذلك الوطن مسرحا لشذاذ الآفاق ومتشردي الشعوب ؟؟؟

حقوق العرب

في ملكية فلسطين

لقد كانت الفصول السابقة التي عرضناها في هذا الكتاب مقتصرة تقريباً على ما يصح ان يسمى « بالدفاع السلبي » من حيث اثبات عروبة فلسطين ، وحقوق العرب القومية فيها . والان لابد لنا ان نتناول هذا الموضوع الذي هو اهم نقطة في بحثنا بصورة ايجابية .

ان الصفة المطلقة التي كنا ولا نزال نطلقها على فلسطين منذ ان تعرضت لهذه المحنة القاسية ، هي كونها « عربية » بكل معنى الكلمة . وجوهر الدفاع في قضية فلسطين هو صيانة عروبة هذه البلاد ، والاحتفاظ بها كجزء حي من الوطن العربي الاكبر ، عربي بارضه وسكانه ، واوضاعه الادارية والسياسية . هكذا الى ان يتسنى لهذه الامة الواحدة ان تجمع شتاتها ؛ ويتاح لهذا الوطن الاكبر ان تتحد اجزاؤه .

لكن ما هي الادلة القاطعة ، والبراهين الدامغة ؛ التي نستطيع ان نثبت بها عروبة فلسطين ، وحق العرب الازلي الخالد فيها ؟

قد يتصور البعض ان هذه القضية هي فوق كل جدل او نزاع ؛ وانها في غنى عن الاثبات والتأكيد ، غير ان الرأي العام الدولي لا يكتفي منا بالبداهة ، ولا يقر حقنا في هذه المعركة السياسية المحتدمة ، دون ان نثبته بالحجة والبرهان ، لذلك نعمد الان الى اثبات حقوق العرب القومية ؛ والتاريخية ؛ والسياسية في فلسطين ، مع تبيانها بالتفصيل .

الوطن العربي

العرب امة من اقدم الامم الحية المعاصرة وشعب له منزلته العالمية منذ عهود التاريخ الاولى حتى العصر الحاضر . وقد اشتركوا في انشاء الحضارة العالمية في عدة ادوار من التاريخ . حتى انهم اسسوا للعالم حضارة خاصة صدرت عنهم ، وعرفت باسمهم وعمرت عدة قرون ؛ وكانت من بعض الاسس التي تقوم عليها حضارة العصر الحديث .

ولهذه الامة العريقة في التاريخ التي لا تزال من الامم الحية المرموقة مزاياها الخاصة ، وكيانها الثابت ، ووطنها المحدود المعروف باسمها . ومن الطبيعي ان يكون الوطن اول مظهر من مظاهر القومية ، وحجر الزاوية في بناء كيان الامم . فاين هذا الوطن العربي ؟ وما هي حدوده الجغرافية ؟ وما هو موقع فلسطين منه ، او نسبتها اليه ؟ هذا اول ما يجب ان نتناوله بالبحث في هذا المقام .

في قلب «العالم القديم» وعند ملتقى القارات الرئيسية الثلاث ؛ وعلى احد جوانب البحر المتوسط ، تقوم بقعة من الارض تؤلف بنفسها وحدة جغرافية تامة وتكاد تبدو على الخريطة كأنها جزء من العالم قائم بذاته ، وجد ليكون حلقة الاتصال بين الاجزاء الاخرى . تلك هي الجزيرة العربية ، مهد العرب الاول . ووطنهم الاصلي الطبيعي .

وتمتاز الجزيرة العربية هذه بكيانها الجغرافي الذاتي ؛ وحدودها الطبيعية الواضحة ووحدتها الداخلية التامة . فهي تمتد من شط آن المحيط الهندي جنوباً الى سفوح جبال طوروس التركية شمالا ؛ ومن الخليج الفارسي وايران شرقا حتى سواحل البحر المتوسط والبحر الاحمر غربا وقلما تيسر لبقعة من بقاع العالم حدود طبيعية واضحة كهذه الحدود . وعلاوة على هذا فهي متماسكة الاطراف ، متصلة من جوانبها الاربعة ، ولا يوجد في داخلها اي حواجز او فواصل طبيعية ثابتة ، كالجبال ؛ أو الانهار او ماشاكلها تفصل بعضها عن بعض

اما الصحراء التي تتوسط هذه البلاد ، وتؤلف بالواقع قلب الجزيرة العربية ، فهي لا يمكن ان تعتبر فاصلا طبيعياً . لانها جزء اساسي من اجزائها ، وموطن لكثير من قبائلها . ولولا الجفاف الذي تشكو منه ، لربما كانت منذ القدم اهم بقعة في الوطن العربي الكامل . لانها تقع منه موقعاً وسطاً . وتؤلف حلقة الاتصال بين اطراف الجزيرة ، بدلا من أن تكون حاجزاً فاصلا كما يتوهم البعض . وما تنفك مسالكها مطروقة من قبل القوافل ، واوديتها مأهولة بالقبائل ، وواحاتها محطات دائمة لابناء الجزيرة في حلهم وترحالهم .

وتعرف هذه البقعة من العالم باسم العرب منذ نيف واربعة آلاف سنة تقريبا. فقد كان القسم الداخلي والجنوبي منها يعرف باسم « بلاد العرب » في كتب الرواد القدماء من اليونانيين وغيرهم . ولما انتهى عهد المنازعات والتطاحن بين الشعوب القديمة حول الهلال الخصيب . امتد انتشار القبائل العربية الى الشمال والغرب ، وتم توطنهم في تلك الاقسام من وطنهم الطبيعي الاكبر . فأصبح ذلك الوطن يعرف باسم « شبه الجزيرة العربية » او « الجزيرة العربية » على حد التعبير الحديث .

وقد تعرض هذا الوطن العربي الكبير ، الى موجات مختلفة من الفتح والاجتياح وحاولت عدة عناصر وشعوب غريبة ، التوطن في بعض اطرافه واجزاء مختلفة منه . لكن هذا الوطن الجبار ظل ثابتاً بوجه جميع الغزاة والفاتحين . وهذه الامة الخالدة ظلت محتفظة بطابعها القومي ، وكيانها ووحدتها ، رغم تقلب الاحداث وكر الاجيال . وما كان مصير تلك الشعوب الدخيلة الا الزوال والفناء ، او الصهر والذوبان ، في وسط هذا التيار العربي القوي الشامل

أما فلسطين ، التي هي موضوع بحثنا الان ، فهي بحكم موقعها الجغرافي ، تؤلف حجر الزاوية في ذلك الصرح الكبير الممدود الجوانب والاطراف ، وسويداء القلب في هذا الكيان القومي المتماسك الاجزاء ، وان انفصالها عن هذا الوطن الاكبر وانتزاعها منه ، كانتزاع القلب من جسم بشري حي ، لو أمكن صيانة هذا القلب المنتزع ، والمحافظة على نبض الحياة فيه ، لتداعى ذلك الجسم ، وتمزقت اوصاله ، واصبح بحكم العدم .

فهل ادعى المحافظة على عروبة فلسطين من مثل هذا الحق !!...

ولو فرضنا جدلا انه اتيح لبعض العناصر الدخيلة الطفيلية ، التسرب الى فلسطين ، ومكاثرة ابناء هذا القطر الصغير بصورة مشروعة او غير مشروعة ، فهل يجوز ان يمنحوا بعد ذلك حق السيادة في تلك البقعة التي استعمروها او اغتصبوها ؟ وهل يمكن التسليم بالقضاء على المستقبل القومي للملايين الباقية من الامة العربية ، وتمزيق شمل ذلك الوطن الاكبر ووحدته في سبيل ارضاء شهوات اولئك الدخلاء ، وتحقيق مطامعهم الاشعبية واوهامهم المتداعية ؟؟

اللهم ان التسليم بمثل هذا الامر ، يعد من اكبر البدع ، وشر المصائب والآلام التي يتعرض الجنس البشري لاحتمالها ، والرضوخ لارادة القدر في حال وقوعها .

العنصر والتاريخ

من هم سكان فلسطين الاصليون ؟ ومن هو الشعب الفلسطيني الحقيقي ؟ والى تاريخ اية امة من الامم تنتسب فلسطين ياترى ؟

هذه اسئلة يجب ان تكون اول ما يطرح على بساط البحث في حالة وقوع النزاع على ملكية البلاد ، وجنسية الدولة العتيدة التي يجب انشاؤها فيها ، وجواباً على هذه الاسئلة نقول :

اذا كانت فلسطين جزءاً من الوطن العربي الكبير الاصيل ، متصلا به ومتمما له ، فان اول افتراض يرد بشأن تعريف الشعب الفلسطيني الاصلي ، هو أنه عربي النسب . أما اذا اردنا ان نأخذ هذه البقعة كوحدة جغرافية مستقلة بذاتها ، ونرى من هم سكانها الاصليون ، واي الشعوب ينتسب اليها او تنتسب هي اليه ، فعلينا اذن ان نعود قليلا الى اعماق التاريخ .

من المعروف جلياً ان الحضارات الاولى التي عرفها التاريخ الانساني ، هي تلك التي نشأت في الشرق الاوسط . وقد كان لهذه الحضارات مسرحين رئيسيين

ها : الهلال الخصيب ، ووادي النيل ، وتعتبر فلسطين جزءاً متمما للهلال الخصيب جغرافياً على الاقل .

ونتبين من التاريخ القديم ؛ أن الشعوب التي ظهرت في مختلف اجزاء الهلال الخصيب واطرافه ؛ وانشأت لها فيه ممالك ودولا وحضارات ، انما كانت تأتي اليه من الخارج ، وان البادية الصامتة ، الجاثمة على تخوم ذلك الهلال ، كانت هي المستودع الاول لاولئك العناصر والشعوب ، والخزان الرئيسي الذي تتدفق منه موجات الهجرات البشرية الكبرى المتعاقبة ، في فترات مختلفة من التاريخ .

وتعليل ذلك ان الجماعات البشرية الاولى ، كانت تتكتل حول بعضها في تلك البادية الجافية ، التي تروي بعض الاساطير ايضاً ، انها هي مهد الانسان الاول ؛ وانها كانت في ادوار معاشها الاولى تحتمل شظف العيش وخشونته ، وهما من الصفاة اللازمة لحياة البادية . حتى اذا اشتد باولئك الناس الضيق والعسر ، وانتابهم بعض فترات من الجفاف الذي يجعل الحياة في الصحراء ضربا من المستحيل ، خرجوا من البادية جماعات جماعات ويمموا وجوههم شطر السهول الممرعة ، والاراضي الخصبة ؛ وشواطيء الانهار الريانة . وتاريخ الهلال الخصيب ، الذي هو سلسلة من الهجرات البشرية المتتالية التي كانت تتدفق اليه تباعاً ، يؤكد لنا صحة هذا الرأي .

فبناء على هذه الحقيقة التاريخية ، نستطيع اذن ان نقول ، ان الانسان الاول الذي دخل الى فلسطين قد تسرب اليها من البادية المتاخمة لها ، والممتدة وراء تخوم الهلال الخصيب عامة . والجماعات البشرية الاولى التي سبقت الى التوطن في فلسطين ، هي نفس تلك الجماعات التي كانت تجيش بها البادية المجاورة لها ، عنصرا ، ونسبا وتاريخاً في البدء . وهذه البادية التي اكثرنا من تر اد ذكرها ، واعتبرت بالنسبة الى التاريخ القديم كمستودع رئيسي تندفع منه موجات الهجرة البشرية الى فلسطين وسائر اجزاء الهلال الخصيب ، هي الجزيرة العربية .

اذن فالفلسطيني الاول هو العربي الاول حتما . والشعب الفلسطيني الاصلي ، هو فرع من الشعب العربي الاصلي ، واذا كان مرور الزمن وتفاعل حوادثه قد احدث بعض التغيير في مظاهر احد هذين الشعبين او كليهما ، فهو لم يغير وحدة

العنصر والنسب ، والتاريخ القديم ، لا سيما وان تلك الحقبة القديمة من التاريخ كانت غامضة مضطربة ، وكان الجنس البشري لا يزال خلالها في ادوار بداوته الاولى . ولا مجال اذ ذاك للتفريق بين القوميات والجنسيات ولو اختلفت اللهجات واللغات في بعض فترات من الزمن .

ولنسر بعد ذلك تدريجياً في موكب التاريخ ، لنرى التطورات التي طرأت على سكان فلسطين من حيث العنصرية والجنس فماذا نجد يا ترى ؟!

لقد كانت فلسطين منذ فجر التاريخ ميداناً لتطاحن القوى المتنازعة بين الشرق والغرب وجسراً للغزاة الفاتحين ، يمرون من مختلف الجهات . لكن هذه الطواريء الجسيمة — رغم خطورتها — لم تؤثر على جنسية سكان البلاد الاصليين ولم تحمل اليها شعباً غريباً ، دخل من خارج الجزيرة العربية واستطاع ان يستوطن فيها بصورة دائمة . وهذا يدلنا على ان الشعب الفلسطيني الاصلي — كجزء من العنصر العربي الاول — ظل محتفظاً بجنسيته الاصلية مبدئياً .

ثم تعاقبت على فلسطين عدة دول كانت الواحدة تنشأ فيها ، ثم تزول وتنهار امام قوة دولة جديدة تنمو في داخل البلاد او حول اطرافها ، ثم لا تلبث ان تثب فتنتزع السيادة والسيطرة ممن سبقها . لكن جميع هذه الدول المشار اليها وان اختلفت اسماؤها ، فهي كلها تنضوي تحت لواء عنصري واحد وهو عنصر « السامية » من الفينيقيين ، الى الحثيين الى الكنعانيين ، الى العبرانيين ، الى العمالقة الى الانباط ، الى التدمريين الى العرب المعاصرين .

اما السلالات الاربع الاخيرة ، فهي عربية النسب صراحاً . واما السلالات التي سبقتها ، فليس ثمة فارق عنصري يفرقها عن العرب ، ولا تستطيع ان تنتسب الى جنسية عامة اخرى غير عربية ، الا الجنسية السامية التي تشمل الجميع .

ولا اريد ان انتقل من هذه النتيجة الى القول ان « السامية » و « العربية » هما اسمان لمسمى واحد . كلا ! بل استطيع ان أقول حقاً ان قلب الجزيرة العربية

الذي هو الوطن العربي الاول ، كان مهد السامية الاول . وان الجزيرة العربية بمجموعها التي تعتبر الوطن العربي الطبيعي ، هي مقر جميع الدول والشعوب السامية التي ظهرت في التاريخ .

والشعب العربي هو سامي بالطبع والاصل واذا كنا لانستطيع ان نعكس هذه التسمية ونقول ان الساميين هم عرب ؛ على اعتبار هؤلاء فرع واولئك اصل ؛ فاننا نستطيع ان نقول ان الامة العربية هي الاسرة السامية في الفترة الاخيرة من التاريخ والسامية هي الاصل العربي الاول . ثم ان الشعب العربي هو الوحيد بين الشعوب السامية المختلفة الذي ظل يمثل مجموعة ذلك الاصل العام ، ولم يتخذ شكل كتلة جزئية انفصلت عن الكيان الكلي . حتى ذاب ذلك الاصل القديم وظهر الفرع الاخير منه بمظهر الامة الكاملة . والشعب العربي المعاصر هو الوارث الوحيد للامة السامية بكل معنى الكلمة والحقوق .

اما اعتبار اليهود هم العنصر السامي الاصلي في التاريخ ، واتخاذ النازيين هذه النظرية وسيلة لاضطهاد اليهود والتشفي منهم ، تحقيقاً لخرافة التفوق العنصري ، فهذا الرأي عدا عن اعتباره مغالطة واقعية للتاريخ ، فهو من الحماقات الحديثة ، والبدع السياسية المستنكرة التي سخرت الامم الحرة منها . ولا مجال لاتخاذها كحجة علمية يستند عليها ؛ على نحو ما اتخذ اليهود اضطهاد النازيين الطغاة لرفقائهم في المانيا حجة للمطالبة بفتح ابواب فلسطين في وجه سائر يهود العالم ، ليهاجروا اليها ؛ ملتجئين في وطنهم القومي الاصلي تخلصاً مما يلحق بهم من الاذى والاضطهاد في سائر انحاء العالم .

والواقع ان الصهيونيين المنتشرين في مختلف بقاع الارض ، لا يحق لهم المطالبة بالميراث السامي القديم . واما اليهود المقيمون في البلاد العربية المختلفة فهؤلاء يعتبرون يهوداً ديناً ، وعرباً جنسية وعنصراً .

لذا نستطيع ان نقول ان جميع الشعوب التي توالت على فلسطين واستوطنتها تمت الى نسب واحد ، وتؤلف سلسلة واحدة متصلة ، والعرب هم الشعب الوحيد المعاصر الذي يتمم سلسلة ذلك النسب التاريخي ، والذي كان آخر حلقة من

حلقاته في فلسطين ايضاً . كما انه لم يكن غريباً عن هذه الجنسية العامة منذ فجر التاريخ القديم .

ولهذا نعتبر فلسطين عربية من حيث العنصر والاصل التاريخي القديم ، كما انها لا تزال كذلك بالوقت الحاضر . اما دعوى اليهود انهم هم الشعب الفلسطيني الاصلي وان فلسطين هي وطنهم القومي بحكم صلاتهم التاريخية والعنصرية فيها فهي دعوى لا تقوم على دليل علمي ، او برهان حقوقي . وقد اثبتنا زيفها في فصول سبقت . ونعيد القول ايضاً الان ، ان الصهيونيين الحديثين ، هم ابعد الناس نسباً وصلة بالمملكة اليهودية القديمة في فلسطين ، وانهم ان ارادوا العودة الى ذلك النسب القديم فكأنما هم يبغون الانتساب الى الجنسية العربية . وبمثل هذا العمل لا يستطيعون منازعة العرب الاصائل في ملكية هذه البلاد

حق الفتح والسيادة

كان حق الفتح يعتبر حقاً اساسياً في توطن شعب ما في البلاد التي يستولي عليها عنوة واقتداراً . وكان هذا الحق مرعياً بصورة خاصة في العهود القديمة من التاريخ ، عندما كان العالم لا يزال في طور البداوة العامة . وكانت شريعة القوة هي السائدة قبل كل شيء كما ان السيادة هي التي كانت تثبت ملكية شعب ما في الوطن الذي يختاره او ينزح اليه .

ولم يكن العرب مواطنين في فلسطين عن طريق الهجرة والاستقرار فقط . ولا كانوا شعباً محكوماً مستعبداً ، وجد في البلاد بفضل الاقدمية ؛ فخفض جناح الذل لكل فاتح اجنبي دخلها وسيطر عليها . بل كانوا اسياداً لا مسودين ، وحكاما لا محكومين . وقد زكوا ملكيتهم الطبيعيه والتاريخية لهذه البلاد بصراعهم مع امم الارض المختلفة لاجلها وفتحها فتحاً حقيقياً بعدما كانت قد انتقلت من ايدي كل عنصر مواطن قديم ، يمت اليها بصلة ، واصبحت مستعمرة رومانية بيزنطية . ثم ظلوا محتفظين بها بالقوة ، يدافعون عنها كل غازا جنبي حتى يوم الناس هذا وسنثبت ذلك فيما يلي :

لقد اوضحنا في الصفحات السابقة ، ان البلاد الفلسطينية في الحقبة الاولى من التاريخ ، كانت تخضع للدول السامية المتعاقبة ، التي دفعتها موجات الهجرة من قلب الجزيرة العربية الى الهلال الخصيب ؛ وان هذه الدول وان كانت قد تنازعت فيما بينها ملكية البلاد ، فهي كلها تعود الى اصل واحد ، وليس العرب غرباء عن ذلك الاصل . مما جعل هذا النزاع نزاع العصبية القبيلية ، لا صراع قوميات مختلفة وبهذا نستطيع القول ان العرب كانوا شركاء في السيادة على فلسطين منذ ذلك العهد ، اولا بصفتهم من العنصر العام الذي مارس تلك السيادة وثانياً لان بعض القبائل التي قدر لها ان تستولي على زمام السلطة في فترات مختلفة من الزمن كانت عربية صريحة ايضاً .

وعندما توسعت الامبراطورية الرومانية نحو الشرق ، ونشرت سيطرتها على حوض البحر المتوسط باسره تقريباً ، بسطت سلطانها على وادي النيل وبعض اجزاء الهلال الخصيب . فانتقلت فلسطين اذ ذاك الى تحت حكم هذا الفاتح الاجنبي ، وانكمش ظل الدويلات المحلية التي كانت تقوم فيها . حتى ان اليهود ، الذين بقيت منهم جماعات صغيرة او كبيرة تستوطن هذه البلاد بعد انهيار مملكتهم وسلطانهم ، اصيبوا آنذاك بالضربة القاضية ، فشردوا من البلاد أي تشريد ، وهدمت جميع الاثار التي كانت لا تزال باقية لهم ، او التي اعادوا انشاءها بعد السبي البابلي ، بما في ذلك هيكل سليمان الشهير . ولم تقم لهم بعد ذلك اية قائمة في فلسطين . وكان هذا في مطلع التاريخ المسيحي .

ولما استقر الرومان في الشرق ؛ وتقلص ظل الحكومات الوطنية في سائر انحاء الساحل الشرقي للبحر المتوسط . تشرد معظم سكان هذه البلاد الاصليين ، ورضخ من ظل منهم مقيما فيها لحكم الفاتح الاجنبي ، وتناسى جنسيته السابقة واصله القومي

الا العرب ... الذين ظلوا سادة وأحراراً

فقد امتنع العرب وراء تخوم السواحل الخاضعة للحكم الاجنبي . وتحصنوا في باديتهم التي جبلت على الحرية ، وظلت دوما مستودع القوة التحريرية الكامنة ،

التي ترقد مع الدهر قروناً ، ثم لا تلبث ان تندفع كالسيل الآتي ؛ فتعيد ما استعبد من اجزاء الوطن الكبير .

ولم يظل العرب مختبئين فى صحرائهم منذ القرن الاول للميلاد ؛ حتى القرن السابع الذي خرجت فيه راياتهم الظافرة ، التي انتشرت فوق القارات الثلاث ، لتبني اعظم امبراطورية عرفها التاريخ . بل اخذوا يتجاوزون حدود الصحراء ، ويقتحمون ثغور الهلال الخصيب جماعات جماعات . وقد انشأوا لهم عدة امارات مستقلة في تلك الحقبة من الزمن ، اشهرها مملكتا تدمر والبطراء . فنازعوا الرومان السلطة على معظم ما كان بأيديهم ، بما في ذلك فلسطين ايضاً . وما خبر الملكة زنوبيا ، ملكة تدمر بالامر المجهول ، ولا حديث مملكة البطراء التي قامت على شاطيء نهر الاردن ليخفى على المطلعين .

نعم . ان الرومان والبيزنطيين ، الذين دخلوا البلاد العربية فاتحين في البدء ، ما لبثوا أن اعترفوا للعنصر العربي الحر ، بقوة الشكيمة والتمرد على القيد . فاضطروا الى ملاينة العرب ، ومنحوهم كثيراً من الامتيازات الادارية . ولم يعاملوهم كسائر الشعوب المفتوحة . الى أن اعترفوا لهم بحق السيادة في قسم كبير من الاراضي التي احتلوها في السابق . فنشأت تلك الامارات العربية المشهورة ، التي اتخذها الرومان احلافا واعواناً ، لاخدماً وعبيداً . وكثيراً ما كان يمتد سلطان تلك الدويلات العربية التي كانت تقوم في عواصم البادية الكبرى المتاخمة للمناطق الساحلية المحتلة ، حتى هذه السواحل نفسها ايضاً في بعض الاحيان . وكثيراً ما دخلت فلسطين برمتها في حوزة هذه الممالك العربية ، كما حصل في عهد الملكة زنوبيا ، ملكة تدمر ؛ أو دخل جزء منها كما حصل في عهد الانباط ؛ ثم الغساسنة ، الذين شاطروا البيزنطيين السلطان في شرقي البحر المتوسط باسره . مما يدل على أن العرب ، الذين جبلوا على الحرية ، وفطروا على التعلق بكل شبر من ارض الوطن ، لم يتخلوا عن فلسطين بصورة نهائية في أي عهد من العهود ، حتى في زمن طغيان الحكم الاجنبي الذي تخلى فيه اليهود انفسهم — وسواهم من العناصر السامية — عن هذه البلاد التي هبوا اليوم للمطالبة بها ، ومنازعة العرب على ملكيتها ، والتذرع بحقوق تاريخية واهية لهم فيها .

وفي مطالع القرن السابع للميلاد ، شع نور الرسالة السماوية المقدسة في بادية العرب . ونزلت كلمة الله العظمى على بطاح مكة . وبعث من نسل عدنان ، ومن اشرف البيوت العربية ، رسول الله ونبيه الكريم ، الذي اختير لاداء تلك الرسالة وتبليغ تلك الكلمة . فينقل العالم بأسره بهذه المعجزة السماوية من الظلمة الى النور.

ولقد كان للامة العربية شرف اصطفاء الرسول الاعظم (ص) من ابنائها هي دون سائر الامم ؛ كما كان لها الفخر ايضاً في تبني تلك المهمة العظمى . التي ظهرت الدعوة الاسلامية لادائها . ولقد شهد التاريخ وايم الحق ، أن تلك الامة المستضعفة ، وليدة البادية ، احسنت تبليغ الرسالة على الوجه الاكمل . وخلقت العالم خلقاً جديداً .

في تلك الفترة القدسية من التاريخ ، عندما خرج العرب من باديتهم المنعزلة ، يحملون رايات الهداية والفتح الى سائر اقطار المعمور ؛ كان اول عمل يتحتم عليهم انجازه ، هو تحرير الوطن العربي الاكبر من كل حكم اجنبي . فدقت ساعة انقاذ فلسطين من ايدي البيزنطيين اذ ذاك ، وحان انضمام هذا الجزء من الوطن الغالي ، الى الوطن الاكبر ؛ بحيث لا تقوى يد الدهر على انتزاعه مرة اخرى .

كان البيزنطيون عند ظهور الدعوة الاسلامية ، شديدي التمسك بسورية عامة ، لأنها كانت اهم جزء من امبراطوريتهم . وكانوا اشد حرصاً على فلسطين بصورة خاصة ؛ لان بيت المقدس كانت تعتبر عاصمتهم الدينية الاساسية . ومما هو مأثور في التاريخ ، ان الامبراطور هرقل ؛ عندما تلقى كتاب النبي محمد (ص) الذي يدعوه فيه الى الدخول في دينه السماوي الجديد ، كان في بيت المقدس يحتفل بانتصاره الرائع على الفرس ، وطرد قواتهم من سورية وفلسطين ، واعادة خشبة الصليب المقدس الى كنيسة القيامة التاريخية ، بعد ما انتزعه هذا العدو منها .

لذلك لم يكن تحرير فلسطين بالمهمة السهلة على العرب . ومع هذا فقد جمعت هذه الامة الناشئة قوتها ، واستصفت رجالها وقوادها ، ودفعت بهم ارتالا وافواجاً في سبيل تحقيق ذلك الواجب المقدس . كما جمع الروم جموعهم الغفيرة ، وعبأوا

جيوشهم الجرارة ، التي كانت ما تزال نشوى في غمرة الظفر ، واكثروا من العدد والعدد ، ليدفعوا بالعرب مرة ثانية الى الصحراء ؛ ويستبقوا ذلك الجزء الثمين من الوطن العربي في قبضتهم الى الابد .

احتدم الصراع شديداً بين العرب والروم ، منذ أن حاولت رايات الفتح العربي الخروج من الجزيرة . ولو في حملات تمهيدية استكشافية . فكانت المعارك الاولية في مؤته ، ودومة الجندل ، ثم وادي العربة . ولما لم تستطع قوى البيزنطيين الاولى أن تصد موجة الفتح العربي الجبار عن تخوم الامبراطورية ، أفسحوا لجيوش العرب المجال في التقدم الى الداخل ، وراحوا هم بنفس الوقت يعبئون جيوشهم استعداداً للمعركة الحاسمة .

وكانت بعد ذلك معركة اليرموك الكبرى ، التي دارت رحاها على حدود فلسطين الشمالية الشرقية . وكفى بذكر كلمة « اليرموك » للقاريء ايضاحا وتبياناً . تلك المعركة الفاصلة التي تيسر للعرب بعدها تحرير سورية باجمعها ، وكانت من اعظم ما جنوه من الانتصارات الحربية الرائعة ، في تاريخهم العظيم المملوء باكاليل الغار .

اندفعت جيوش العرب الظافرة في سورية بعد معركة اليرموك على شكل مروحة ولكنه كان امامهم هدفين رئيسيين : الاول فتح دمشق ، والثاني فتح بيت المقدس ؛ أما البيزنطيون ، فانهم لم يسلموا بالهزيمة ، بالرغم من الضربة القاضية التي حلت بهم في اليرموك . بل ظلوا يحاولون التشبث في البلاد حيثما استطاعوا . وكانت مقاومتهم في الجنوب (فلسطين) اشد كثيراً مما كانت عليه في الشمال . اذ جمعوا فلول جيوشهم لمنازلة العرب في معركة كبرى للدفاع عن فلسطين خاصة . وكانوا ينقلون المؤن والامداد الى تلك البلاد عن طريق البحر . فنشبت معركة اجنادين الهامة بعد معركة اليرموك ؛ وذلك داخل الاراضي الفلسطينية بالذات . فكانت نتيجتها اتماما للظفر العربي الكبير الاول . ثم وقعت عدة معارك صغيرة اخرى مثل معركتي (فحل) و (قيسارية) . ودافع الروم عن كل مدينة هامة في فلسطين تقريباً ، مما يدل على مقدار تشبثهم في البلاد . ومع ذلك ظلت رايات

الفتح العربي تطوي سهول فلسطين ، وتجتاح كل مقاومة تعترض سبيلها ، حتى بلغت أسوار بيت المقدس .

وتعد قصة فتح القدس الشريف من أروع القصص الخالدة في التاريخ العربي بنوع خاص . ذلك لانها اظهرت تقدير الروم ـ الذين كانوا آنذاك ارقى امم الارض ـ لهذه الامة العربية الناشئة . اذ توسموا بالعرب خيراً وهم يندفعون في حياتهم الجديدة هذه . وتبينوا فيهم دلائل الكفاءة والقدرة على صيانة حضارة العالم القديم ، ثم خلق حضارة جديدة ، قد تكون اكثر ازدهاراً ، ويمناً ، وبركة . لذا قرروا أن يسلموهم تلك المدينة الخالدة المقدسة ، التي يعتبرونها اعظم ذخر يحرصون عليه في الدنيا ، واعظم آثار العالم القديم على الاطلاق ، وابوا الا أن يأتي قائد هذه الامة الاعلى ، وخليفة الرسول الاعظم ، ليتسلم بنفسه هذه الهدية الثمينة من الامبراطورية البيزنطية العريقة ، الى الامبراطورية العربية الفتية الناشئة .

ومما هو مأثور بهذه المناسبة ايضاً ، ان احبار بيت المقدس وبطاريقها ، عندما جاء خليفة المسلمين عمر بن الخطاب (ر) ليتسلم مدينة بيت المقدس ، وتبادلوا بينهم وبينه العهود والمواثيق ، طلبوا من العرب شرطاً تشبثوا بوجوب تحقيقه . وهي ان لا يسمح لليهود ثانية بالتوطن في ارض ايلياء . فما رأي مؤيدي الحركة الصهيونية الحديثة من زعماء الدول المسيحية الغربية بهذا العهد ؟؟ وكيف يدعون الى تسليم مهد المسيح وقبره ، الى الد اعدائه الذين انكروه رسالته واضطهدوه !!

تم للعرب تحرير فلسطين بكاملها خلال العام الثالث عشر للهجرة ، وسرعان ما اصطبغت هذه البلاد بالصبغة القومية العربية ، واندمجت مع الوطن الاكبر بكل سهولة وبساطة ، وحمى العرب ذمار هذه البلاد بعد ذلك رغم تكرر محاولات البيزنطيين لغزوها باساطيلهم من البحر . كما أنهم ستبسلوا في الدفاع عنها اثناء الحروب الصليبية الطاحنة ، التي امتدت اربعة قرون متوالية ، والتي جمعت اوروبا فيها جميع قوتها لانتزاع هذه البلاد من قلب الوطن العربي ، فلم تفلح قط .

وعندما ظهرت الامبراطورية العثمانية في آسيا الصغرى ، وأوغل سلاطينها في فتوحاتهم نحو قلب اوروبا من الشرق ، عادوا بعد أن حققوا قسما كبيراً من

مطامعهم هناك ـ فالتفتوا نحو البلاد العربية ، ولكنهم لم يظهروا بمظهر الغزاة الفاتحين ، الذي يطلبون توسعاً استعمارياً ، بل جاؤا باسم الحق الديني ، والسعي لحماية الاراضي الاسلامية المقدسة ، وتجديد الخلافة لانفسهم ، فجرد السلطان سليم حملة كبرى نحو البلاد السورية عام ١٥١٧ ، وحاول المماليك وسواهم من اصحاب الامارات الصغرى ، الوقوف في وجه هذا الفاتح الكبير ؛ حرصاً على اماراتهم ودويلاتهم الخاصة ؛ لكن جيوش العثمانيين انتصرت عليهم في معركة مرج دابق في شمالي حلب ، فكانت تلك معركة فاصلة ، مهدت للعثمانيين السبيل للاستيلاء على سائر البلاد العربية ؛ وراحت جيوشهم تتقدم نحو الجنوب ، حتى احتلوا دمشق ، فبيت المقدس ، فمصر بكاملها ايضاً ، وذلك خلال سنتين من الزمن . وفي مصر اعلن السلطان سليم نفسه خليفة ، بسبب تنازل آخر خليفة عباسي ، كان لاجئاً في مصر ، عن ذلك اللقب الاسمي الذي كان لا يزال يحتفظ به هو سلالته ، الى هذا السلطان المسلم . وهذه الرواية مطعون في صحتها . وليس لنا الان التبسط في مناقشتها على كل حال ، لانها خارج نطاق بحثنا الخاص . لكنها ترينا الشكل الذى دخل فيه العثمانيون الى البلاد العربية . ولننظر مع هذا كيف كان موقف العرب عامة ازاء هذا الفتح الجديد ؟ وماذا تم لفلسطين بصورة خاصة من بعده ؟.

نعم لقد دخلت البلاد العربية باسرها في حوزة هؤلاء الفاتحين الجدد لكنهم هم لم يقيموا انفسهم عليها بصفة حكام غرباء عنها ؛ او محتلين لها . بل كانوا يتقربون اليها بصفة العاطفة الدينية ، فاعتبروا امبراطوريتهم تلك بمثابة دولة اسلامية موحدة واعتبروا العنصر العربي عنصراً مساهما في الحكم والسلطان ، وكان كثير من العرب من يتمكن من تقلد اعلى المناصب الرفيعة في قلب العاصمة العثمانية ، كما هو معلوم . لهذا لم يكن الحكم العثماني في البداية ليعتبر حكما اجنبياً بكل المعنى الكلمة في البلاد العربية .

وبالرغم من ذلك فان العرب لم تلن قناتهم قط ، ولم يستسلموا لسلطان الاتراك استسلاماً مطلقاً ، بل كان كل قطر عربي يغلي كالبركان ، ولا يلبث ان ينفجر ثائراً في سبيل حريته ، فكانت الثورات التحريرية لا تكاد تنقطع ، فمن ضفاف

الفرات الاوسط في العراق ، حتى الشام ، حتى جبل لبنان العربي ؛ ثم جبل النار (نابلس) في فلسطين . أما سائر انحاء الجزيرة العربية الداخلية ، فقد عجز اي حكم اجنبي ان يستقر فيها قط .

وأوضح دليل على منازعة العرب للاتراك على السيادة والسلطان ، وعدم بقاء فلسطين بنوع خاص تحت الحكم الاجنبي ، تلك الحركة التحريرية الكبري التي قام بها الامير فخر الدين المعني ؛ ذلك البطل العربي الخالد ، الذي خرج من عرينه في جبل الشوف (جنوبي لبنان) فاعلن الاستقلال عن السلطنة العثمانية ، وذلك في اواخر القرن السادس عشر للميلاد ، وهزم جيوش العثمانيين في عدة معارك طاحنة وتمكن ان يؤلف لنفسه امارة عربية مستقلة ، شملت تقريبا كل سورية الطبيعية ، بما فيها فلسطين حتما ، ومع أنه لم يقدر لهذه الامارة العربية الحرة ان تعيش اكثر من بضع عشرة سنة ، لكنها كانت دليلا على تمسك العرب بحريتهم ووطنهم ؛ وعدم تخليهم عن السيادة فيه للاجنبي

وبعد ان زالت امارة المعني من الوجود ، ورضخ القسم الشمالي من سورية لمصير القدر ، أبت فلسطين العربية ان تستكين للضيم طويلا . فكانت الثورات الداخلية لا تكاد تنقطع في جبال الخليل ؛ ونابلس . وكان (آل الجرار) وسواهم من الاسر العربية العريقة في جبل النار شوكة في جنب الحاكم الاجنبي في فلسطين لم يقو على خضدها . ثم ان عكا ـ ذلك الحصن العربي المنيع ـ لعب دوراً هاماً في العهد العثماني يشهد به التاريخ . اذ ظهر فيه امراء اشداء ، مثل الشيخ ضاهر العمر ، واحمد باشا الجزار ، واستقلوا بالحكم استقلالا تاماً تقريباً ، ونزعوا سيادة العثمانيين عن معظم انحاء فلسطين . حتى أن اسوار عكا الشهيرة ، اصبحت مضرب المثل في المناعة والقوة خلال القرنين الماضيين ؛ ويكفي انها امتنعت على نابوليون ذلك الفاتح العظيم ، فكانت من اهم العوامل لقهره ، وفشل حملته التاريخية التي جردها لاجتياح الشرق .

ثم جاء الدور الاخير من تاريخ الامبراطورية العثمانية ، وهو دور استبداد السلاطين ، وظهور النزعة العنصرية التركية ، فاشترك العرب في اوائل القرن الحالي

بالحركة الاصلاحية الدستورية للامبراطورية العثمانية . حتى اذا تم الانقلاب ، ووثبت الاحزاب التركية المتطرفة الى ذروة الحكم ، اظهر هؤلاء نزعتهم الخاصة وجاهروا بوجوب « تتريك » جميع العناصر التابعة لامبراطوريتهم ، عند ذلك بدأت الحركة العربية التحريرية المعاصرة . فتألفت الجمعيات السرية والعلنية ، وشرعوا يطالبون بنظام اللامركزية في البدء ، ثم الاستقلال التام عن الحكم التركي بعد ذلك ، وانشاء دولة عربية حرة موحدة .

ولما انبثقت شرارة الحرب العالمية الاولى ، وخاضت الامبراطورية العثمانية المتداعية غمارها الى جانب الالمان وحلفائهم ، اغتنم العرب تلك الفرصة ، فاتصل زعماؤهم في الحجاز ، ومصر واوروبا بقادة الحلفاء ، وقرروا الانضمام الى جبهتهم ، والعمل في صفوفهم من اجل حرية البلاد العربية واستقلالها ، وكان « شريف مكة » الهاشمي ، وانجاله الميامين ، عماد هذه الحركة التحريرية الحديثة . فاطلقوا رصاصة الثورة العربية في الحجاز ؛ ثم تألف جيش الفتح العربي في بطاح مكة مرة اخرى في التاريخ ، ومشى يناجز الاتراك القتال لوحده في البدء . فاجلى العدو عن المدينة وجدة ، حتى ينبع ، والوجه ، ثم العقبة . واخيراً ، عندما تم لهذا الجيش العربي الاستقرار في العقبة ، كانت قوات الجنرال اللنبي قد عبرت قناة السويس ، مندفعة على الخط الساحلي نحو الشمال . فراح الجيش العربي يسير معها من الداخل ايضاً ؛ وكان ذا فائدة ستراتيجية عظيمة لها ، فاشترك هذا الجيش القومي في تحرير فلسطين آنذاك ؛ كما قدر له ان يستولي بنفسه على شرقي الاردن ، ودمشق ، ومعظم سورية الداخلية . وبهذا يكون العرب قد ساهموا في فتح فلسطين وتحريرها مرة اخرى في التاريخ .

****

نرى من هذا الاستعراض التاريخي الطويل ـ على ما فيه من ايجاز وسرعة تنقل ـ ان العرب اثبتوا حقهم في ملكية فلسطين بجميع اساليب الملكية القانونية . ومهروها دما زكياً ، ومهجاً غالية ، ودافعوا عنها طوال القرون العديدة ، كما لم يمكنوا اي فاتح اجنبي من الاستقرار فيها قط ؛ وكما حرروها من قبضة كل شعب غريب كان يحاول اغتصابها منهم .

فقد دخلوها في الادوار الاولى من التاريخ ؛ واستقروا فيها مستوطنين ثابتين، ثم دافعوا عنها الغزاة الاوائل ، واثبتوا سيادتهم عليها في العهود البعيدة ، مع سائر العناصر السامية الشقيقة لهم . ولما دخلت فلسطين تحت اول حكم اجنبي ثابت ، كان العرب هم العصبية الوطنية الوحيدة التي ظلت تناجز ذلك الاجنبي ، وتنازعه السيادة على البلاد في حين أن اليهود ، لم يتمكنوا مطلقاً من الثبات في وجه اي فتح اجنبي ، وكانت كل موجه من موجات الغزو الخارجي ، تقتلع آثارهم من البلاد وتمزقهم شر ممزق ، فيبقى على العرب وحدهم صيانة هذه الاراضي المقدسة بعد ذلك .

وأخيراً جاءت موجة الفتوحات العربية العظمى ، فحررت سائر اجزاء الوطن العربي الكبير ، ثم انشأت اعظم امبراطورية موحدة عرفها التاريخ ؛ وطبعت فلسطين آنذاك بالطابع العربي الخالد ؛ الذي لا تزال تبدو فيه حتى اليوم . ولم يذكر التاريخ منذ ذلك الحين ، ظهور اية ثورة او انتقاض في فلسطين على الحكم العربي، مما يؤكد انه ليست ثمة شعب اصيل في هذه البلاد غير الشعب العربي .

ولما تحولت هذه الامبراطورية التي بناها العرب بحد سيوفهم ، الى امبراطورية دينية وخلافة وهمية ، واندس فيها عناصر شعوبية مختلفة باسم الدين ، وقدر ان يفلت زمام السيطرة فيها من يد العرب ، وكاد العنصر الاجنبي المسيطر ان ينتزع سيادة العرب حتى عن ارض الوطن العربي ، ويحاول تغيير المعالم القومية لهذا الوطن الخالد ، انبثقت نهضة عربية جديدة . وخرجت راياتهم وسراياهم من قلب الجزيرة مرة اخرى ، لتطبع سواحل هذه الجزيرة المهددة بالطابع القومي الموشى بدماء الشهداء .

وقد قدر لهذه الحركة التحريرية الجديدة ان تساهم في فتح فلسطين عسكريا ، وان تجدد سيادة العرب فيها بانفسهم . فهل بعد هذا التاريخ العربي الحافل بالبطولة والتضحية والدفاع عن فلسطين ، وبعد ان جدد العرب فتح هذه البلاد مرتين ، وبعد ان اروا كل شبر من ارضها بدمائهم الزكية ، ولم يتنازلوا قط عن حقهم القومي وسيادتهم فيها ، يستطيع شذاذ الافاق ان

يجمعوا انفسهم من كل زاوية من زوايا العالم ، ويطالبوا بامتلاك هذه البلاد مدعين الحق لهم بتجديد ملك دارس اصبح اثراً بعد عين ؛ ولم يكن سوى صفحة هزيلة من تاريخ فلسطين بالاصل ؟؟

الحق السياسي

اذا كانت الحقوق القومية والتاريخية ليست كافية وحدها لتثبيت ملكية شعب ما للوطن الذي يشغله ويعيش فيه منذ آلاف السنين ، وكان الرأي العام الدولي لا يستغني عن ابراز الوثائق والمستندات السياسية لتأييد ذلك الحق الطبيعي بحق سياسي جديد — وهذا ما يفسر لنا تكالب اليهود على استجداء البيانات السياسية والتصريحات المتنوعة التي تحاول تأييد وجهة نظرهم في قضية فلسطين — فان العرب ليسوا عزلا من مثل هذا السلاح ؛ ولا هم محرومون من مثل هـذا المستند الذي يزكي لهم حقهم في ملكية فلسطين ايضاً والى القاريء الكريم بيان ذلك

عندما هب العرب في اواخر عهد الحكم العثماني يطالبون بالانفصال عن تلك الامبراطورية المتداعية ، وبالاستقلال الذاتي للبلاد العربية ، والفوا لهـذا الغرض الاندية والاحزاب والجمعيات السرية ، كانت هذه الحركة عامة شاملة في كل الاقطار العربية من جهة ؛ وكان لعرب فلسطين سهم خاص فيها من جهـة ثانية ايضاً . الا ان فلسطين كانت تعتبر جزءاً من سوريا الكبرى — او القطر الشامي على حد الاصطلاح القديم — لذلك اندمجت قضيتها مع القضية السورية العربية وانضم ابناؤها الى صفوف اخوانهم العاملين في بيروت ودمشق والقاهرة للسعي في سبيل تحرير القطر السوري من الحكم العثماني وانشاء دولة عربيـة حرة فيه ، وعندما قام جمال باشا السفاح بتلك الحركة الارهابية في سوريا اثناء الحرب الماضية ، وعلق احرار العرب على اعواد المشانق ؛ كان بين اولئـك الشهداء نفر من ابناء فلسطين البررة .

وعندما اندلعت نيران الحرب الكونية الاولى ، ودخل الاتراك في غمارهـا الى جانب الالمان ، وهب العرب لاغتنام الفرصة فانضموا الى صفوف الحلفـاء ،

واعلنوا ثورتهم الكبرى الشهيرة على الاتراك في سبيل التحرر والاستقلال، اتحدت جميع الاحزاب العربية المناضلة وتكتلت كلها حول رأس الحركة التحريرية العامة وعميدها المغفور له الملك حسين بن علي فاصبحت القضية الفلسطينية اذ ذاك جزءاً من القضية العربية الكبرى ؛ وارتبط مصيرها بمصير الحركة التحريرية الرئيسية التي اعتبرت هي ايضاً جزءاً من نضال الشعوب الصغيرة التواقة للحرية ، تلك الشعوب التي كان الحلفاء يقدمون لها الضمانات ، ويبذلون لها المساعدات .

ولقد كان برنامج الثورة العربية المشار اليها تحرير البلاد العربية برمتها وتأسيس دولة عربية موحدة ، تكون صاحبة السيادة والسيطرة في ذلك الوطن العتيد الحر . وقد اوضح قائد الثورة الاول ، ومطلق جذوتها ، الحسين بن علي ، هذا البرنامج في منشوره التاريخي ، الذي اذاعه من مكة المكرمة يوم ٩ شعبان .

ولم يقتصر مجهود الحركة العربية التحريرية هذه على الاعمال العسكرية فقط ، ومناجزة العدو القتال لاجلائه عن اراضي الوطن العربي التي يحتلها عنوة واغتصابا . بل امتد الى الافق السياسي ايضاً ، بالسعي لجعل هذه الحركة العربية جزءاً من مجهود الحلفاء الحربي العام . وبالحصول على اعتراف الحلفاء بهذه الحركة وغاياتها واهدافها . ثم باخذ العهود والضمانات من الحلفاء انفسهم ، لتحقيق الاغراض القومية التي اعلن العرب ثورتهم من اجلها وتأييد مطاليب العرب الاستقلالية .

وقد حصل العرب على هذه الضمانات المنشودة ، اثناء المخابرات الرسمية التي دارت بين الشريف حسين زعيم النهضة العربية الاول ، والسر هنري مكماهون المعتمد السياسي البريطاني للشرق الاوسط في القاهرة اثناء الحرب الماضية . فقد دارت هذه المخابرات بين مكة والقاهرة قبل اعلان الثورة العربية ببضعة اشهر ، وضمنها الشريف حسين مطاليب العرب الاساسية وهي : التحرر من الحكم الاجنبي ؛ وانشاء دولة عربية مستقلة ، والاعتراف بوحدة البلاد العربية ضمن حدودها الطبيعية . اما هذه الحدود الطبيعية فهي كما يلي : خط مرسين ـ ادنه شمالا ، وبلاد فارس حتى خليج البصرة شرقا ، والمحيط الهندي حتى سواحل الجزيرة العربية جنوبا ،

والبحر الاحمر والبحر المتوسط غربا . (ويستثني من ذلك محمية عدن ، الداخلة ضمن الحدود الجنوبية فقط) .

نعم ! لقد كانت حدود البلاد العربية المشار اليها اعلاه ، ووحدتها الداخلية ايضا موضوع أخذ ورد في تلك المخابرات الشهيرة ، فقد أظهر الحلفاء بعض التحفظ في البدء ، كما كانت لهم ملاحظات خاصة ابدوها للشريف الحسين ، وتتلخص هذه الملاحظات والتحفظات ، بعدم اقرار الحدود الشمالية على نحو ما ذكرت ثم بمحاولة استثناء الولايات الساحلية الممتدة غربي خط حلب ـ دمشق (اي من اسكندرونة الى بيروت) من الانضمام الى الدولة العربية الموحدة ؛ مراعاة لبعض المصالح الدولية المعروفة . لكن الملك حسين رحمه الله لم يقبل بهذه الملاحظات كما وردت ، وكل ما كان منه أن اعرب عن تساهله بشأن « الحدود الشمالية » والتخلي عن ولايتي مرسين وأدنه ، بالنظر لوجود اغلبية غير عربية فيهما . أما فصل اي جزء من الساحل عن جسم الدولة العربية العتيدة فهذا ما لم يعترف به قط . وعاد فاستعمل التشبث والتشديد بعدم جواز العمل به .

وليس لنا ان نتوسع في بحث هذه المراسلات التاريخية التي كثر حولها الجدل والنقاش ، والتي تركت بعض النقاط الغامضة فيها ايضا . لكننا اذا اردنا ان نرى ما يتعلق بالقضية الفلسطينية منها ، فاننا نجد انها اعتبرت ضمن الوطن العربي العتيد الذي طالب الملك حسين ـ باسم الشعب العربي ـ بتحريره ووحدته ، وانشاء حكومة عربية مستقلة فيه ، ولم يبد الحلفاء اي اعتراض قط بشأن فلسطين في ملاحظاتهم الخاصة او بياناتهم . كما انه لا يمكن ان تكون قد اعتبرت بحال من الاحوال داخلة ضمن الاقسام الساحلية الواقعة غربي خط حلب ـ دمشق ، التي طولب برعاية بعض المصالح الدولية والمحلية فيها ، والتي لم يرض المفاوض العربي باقامة اي اعتبار خاص فيها يفرط بوحدة الوطن العربي ايضا .

اذن فقد خاض العرب غمار الحرب العالمية الماضية في سبيل الحرية والاستقلال ووحدة البلاد العربية . وكان اعتراف الحلفاء لهم بحقهم في الاستقلال اكبر دافع لهم على تلك المغامرة ، وخير ضمانة لهم يعتمدون عليها في النتيجة . أما فلسطين ،

فهي بطبيعة الحال تعتبر جزءاً من الدولة الموحدة التي طالب العرب بانشائها . واذا كان قد ظهر بعض الجدل والغموض في تحديد تلك الدولة العتيدة ، فان فلسطين بالذات ، لم تكن موضع ذلك الجدل قط ، ولا غموض وابهام في المصير الحقيقي الذي كان مقرراً لها . وبما ان نتيجة تلك الحرب كانت حسبما اراد الحلفاء ، وصادفت الثورة العربية بحد ذاتها نجاحا قومياً كبيراً ، وظفراً عسكريا رائعاً ، فمن الطبيعي ان تدخل فلسطين ضمن نطاق الاراضي العربية المحررة بلا نزاع . وان يكون العرب هم اصحاب السيادة والحكم فيها . وهذا حق سياسي صراح . كانت اسبابه واصوله قد اعدت سلفاً

لكن الذي غير مجرى القضية الفلسطينية ، والمصير القانوني الذي كان منتظراً لها ، ثم خلق في البلاد جواً من الاضطراب لا يزال مصطخباً بالحوادث الجسام حتى الان ، هو تصريح بلفور الشهير الذي اقحم الصهيونيين في المضمار ، وجعل لهم حقاً سياسياً في فلسطين الى جانب حقوق العرب ؛ وحول البلاد الى ميدان صراع قومي عنيف بين هذين العنصرين المتنازعين . فلمن يحكم بالحق السياسي اذن بعد هذا ؟ واي الجانبين يفوز بالافضلية الحقوقية في هذه القضية الدولية ؛ التي نفترض انه قد تضاربت فيها المواثيق والضمانات الدولية .

لقد تناولنا تصريح بلفور هذا في الفصول السابقة ، وأثبتنا أن اليهود اشتطوا في استغلاله ، وبالغوا كثيراً في تأويله وتفسيره لمصلحتهم . مما ادى آخر الامر الى وضع حد لهذا الشطط والمغالاة ، من قبل السلطة التي اصدرت ذلك التصريح . لكننا سنعمد الان الى مناقشته من ناحية ثانية ، لنرى مدى قانونيته المجردة ، ومقدار ما يمكنه ان يؤثر على حق العرب السياسي في النزاع الحقوقي البحث بشأن ملكية فلسطين والسيادة عليها .

اول ما نقوله بهذا الموضوع ؛ هو ان المواثيق التي حصل عليها العرب ، والتي لم تتعرض قط لمنازعة اي حق من حقوقهم في فلسطين ، صدرت قبل هذا التصريح المشار اليه بسنتين تقريباً . فيكون للعرب حق الاسبقية بموجبها . ثم ان القضية العربية بنيت منذ ذلك الحين على هذا الاساس ؛ اعني اساس اعتبار البلاد العربية ـ حسب

حدودها المذكورة آنفاً ـ وحدة تامة مستقلة . وامتدت الحركة التحريرية التي امتزجت مع مجهود الحلفاء الحربي العام ، بموجب ذلك الدستور ، ثم نجحت الثورة العربية في بلوغ اهدافها المقررة ، وتمكنت القوات العربية من تحقيق المهام الحربية التي اناطتها بها قيادة الحلفاء العامة في الشرق الاوسط . ولم يظهر لتصريح بلفور آنذاك اي ذكر ، ولم يسمع له اي صدى ، ولم تتلق الاوساط العربية ـ السياسية او العسكرية ـ التي اعترف لها بصفة المحارب الرسمي ، اي تنبيه اوملاحظة بهذا الخصوص ، لتبدي رأيها في الامر ، وتقرر موقفها منه . لهذا لا يمكن ان نعتبر العرب ملزمين بشيء مما نص عليه وعد بلفور قطعاً . كما أنه لا يمكن لهذا التصريح ان يعتبر لاغياً لاي حق من حقوق العرب القومية او السياسية في فلسطين ، هذا اذا لم نقل أنه لا يصح اعتباره قانونياً لعدم أخذ رأي أصحاب البلاد الشرعيين به .

* * *

وبعد أن وضعت الحرب العالمية الاولى اوزارها ، وبسطت الخرائط على موائد مؤتمرات الصلح ، وصدرت المبادىء والقوانين الجديدة التي اعتبرت دستوراً للعالم الجديد ، وعرضت مطاليب جميع الشعوب الصغيرة والكبيرة على بساط البحث ، دخلت القضية الفلسطينية آنذاك في هذا الدور السياسي الشاذ ، ووجد العرب انفسهم امام مرحلة جديدة من مراحل النضال التحريري .

ففي شهر نيسان من سنة ١٩١٨ ، أذيع تصريح بلفور في بيت المقدس رسمياً ؛ ولاول مرة في فلسطين ، فكان ان قوبل من العرب بالرفض القاطع ، والاحتجاجات المتتالية ، واتخذوا المطالبة بالغاء ذلك التصريح مبدءاً سياسياً ووطنياً لهم ، منذ اعلانه ، حتى يومنا هذا . ولم ترض اية هيئة عربية في فلسطين ، او خارجها ، الاعتراف بهذه الوثيقة المشؤومة قط ، ولا الموافقة على اي تدبير سياسي يستند اليها .

وجاءت مؤتمرات السلام الماضية ، فلم يجد العرب مقعداً لهم فيها كما كانوا

يتصورون ان ينالوا . فقرر مصير بلادهم في غيابهم ، وفرض عليهم الانتداب ، ونظام التجزئة السياسية ، كما الحق تصريح بلفور بصك الانتداب على فلسطين . لكن العرب الذين لم يكونوا يملكون شيئاً الا الرأي السلبي آنذاك ، رفضوا الاعتراف بكل ما قرر بشأنهم دون موافقتهم ، فكان تصريح بلفور بصورة خاصة من الامور التي اتفق الرأي العام العربي على رفضها . ثم انصرفوا بعد ذلك الى العمل الايجابي ؛ وشرعوا بتقرير مصيرهم لانفسهم ، حسب مبادىء عصبة الامم الجديدة ، وبنود ويلسون التي تمنح جميع شعوب العالم حق تقرير المصير . فاعلنوا انشاء حكوماتهم الوطنية المستقلة في مؤتمرات وطنية رسمية ؛ تعرب عن ارادة الامة ؛ وكانت الحكومة العربية في دمشق ، هي محور ذلك النشاط السياسي العربي .

ولسنا نريد ان نتبسط في سرد هذه الحوادث الان ، لكننا نأخذ منها ما يعني القضية الفلسطينية ، التي هي موضوع بحثنا الحالي ؛ لنرى كيف أن عرب فلسطين قرروا مصيرهم بنفسهم ، واثبتوا حقهم السياسي في وطنهم القومي ، بصورة واضحة في مثل ذلك الجو الدولي القاتم المضطرب .

لقد كانت فلسطين تعتبر في الادوار السابقة من التاريخ ، جزءاً من سورية الكبرى ـ ولا يزال القوميون الصحيحون يعتبرونها كذلك حتى اليوم ـ لهذا هب عرب فلسطين الى الالتفاف حول الحكومة العربية المستقلة ، الناشئة في العاصمة الام ـ دمشق ـ ولم يعتبروا الحواجز السياسية التي اقيمت بينهم وبين تلك العاصمة ، ولا الاوضاع الدولية الجديدة التي حاولت ان تجعلهم في عزلة عنها . وعقدوا مؤتمراتهم الوطنية المتعددة التاريخية بين سنتي ١٩١٨ ـ ١٩٢٠ ؛ وقرروا اعتبار فلسطين جزءاً لا يتجزأ من الدولة العربية في الشام ـ التي كانت تعتبر بحد ذاتها جزءاً من الدولة العربية الكبرى التي اريد بالثورة العربية ان تنشئها ـ وانتخبوا مندوبين عن جميع المدن الفلسطينية الى المجلس التمثيلي المركزي في دمشق . واعتبر هؤلاء اعضاء رسميون في المؤتمر الوطني ، والمجلس التأسيسي الذي اعلن انشاء الدولة العربية الهاشمية

وعندما ظهرت هذه التيارات السياسية المتنازعة ، في هذه البقعة الصغيرة من

العالم اثناء انعقاد مؤتمرات السلام ، واصطدمت المصالح العربية والاجنبية المتعددة بين دمشق ، وبيروت ، والقدس ، مما لا يخفى تفصيله على أحد ، رغب القائمون على تنظيم العالم الجديد آنذاك باستجلاء حقيقة الموقف في هذا القطر العربي الصغير ، والوقوف على ارادة الشعب الحقيقية ، ورأيه في تقرير مصيره الخاص . عند ذلك اوفدت لجنة انكليزية ـ اميركية الى سورية يرأسها المستر (هول كراين) الاميركي الحر ، فجاءت لسورية في عام ١٩٢٠ ، وطافت جميع انحائها ، في لبنان ، وسورية الداخلية ، وفلسطين ، وسمعت اراء جميع طبقات السكان الوطنيين ، وتلقت آلاف العرائض ، وقامت بشبه استفتاآت واحصاآت سياسية . وقد تبين لهذه اللجنة آنذاك ، ان اكثرية السكان المطلقة ، تتشبث بانشاء حكومة عربية موحدة في القطر السوري الكبير ، كما كان لهذه الاكثرية في امر الانتداب امر معلوم ايضاً ، لا مجال لاثارته الان .

أما فيما يتعلق بمصير فلسطين ، فقد شهدت هذه اللجنة أن مجموع سكانها العرب ـ من مسلمين ومسيحيين ـ لا يقرون مشروع الوطن القومي الصهيوني ، ولا يرضون قط بانشاء دولة يهودية في بلادهم ـ كما كان هذا رأي العرب في سورية ولبنان ايضاً ـ ثم ان زهاء ثمانين بالمئة من عرب فلسطين ، كانوا يطلبون الانضمام الى الدولة العربية في دمشق ، أما الباقي ، فكان يرضى بقيام حكومة عربية مستقلة في فلسطين . لكن التدابير الدولية التي اتخذت بعد ذلك ، والمصير الذي قرر لسورية الكبرى عامة ولفلسطين خاصة ، لم ينل موافقة السكان الاصليين ، واتخذ العرب حياله مواقف سلبية صريحة ، اشرنا لها في اماكن سبقت .

نرى من هذا الاستعراض السريع العام ، ان العرب لم يتهاونوا قط في المحافظة على حقهم السياسي في فلسطين ، قبل الحرب العالمية الاولى ، واثناءها ، وفيما بعدها ، ولم يفرطوا بهذا الحق قيد شعرة . ولا وافقوا على اي تدبير سياسي يؤدي الى انتقاص عروبة فلسطين بصورة من الصور ، فهم كانوا يطلبون لها التحرر من الحكم العثماني ، مع سائر الاقطار العربية القائمة بحركة التحرر آنذاك . وهم خاضوا

غمار الحرب العالمية الماضية في سبيل بناء استقلالهم وكيانهم القومي ، بارواحهم ودمائهم وظبى سيوفهم ، وكانوا يعتبرون فلسطين جزءاً اصيلا من ذلك الكيان القومي المنشود . وبعد ان وضعت الحرب العالمية اوزارها ، قرروا لنفسهم ، ولفلسطين ايضاً ، المصير الذي يريدونه هم ، حسب الوسائل المشروعة التي توفرت لديهم . ثم انهم نبذوا كل قرار سياسي خارجي يتنافى مع ذلك المصير الذي قرروه هم . وظلوا يتخذون الموقف السلبي بصورة خاصة ازاء السياسة التي ترمي الى تهديد عروبة فلسطين ، حتى يومنا هذا .

فيكونون اذن ، قد اثبتوا حقهم السياسي في هذا الجزء من وطنهم الاكبر ، بالاساليب السلبية والايجابية ؛ عدا عن الدفاع المستميت الذي جادوا خلاله بالارواح والانفس . واذا كانوا لا يملكون من القوة ما يمكنهم من تحقيق تلك الآمال ، وتنفيذ المقررات المعبرة عن ارادتهم الصحيحة ؛ والحؤول دون تشويه مصير قضيتهم وبلادهم ، فلا حرج عليهم من ذلك ولا وزر ، ولا يزال ضمير الانسانية حياً ينتصر للحق ، ولا بد من يوم تقرر فيه العدالة مصائر الامور ، غير مكترثة بالقوة ؛ او النفوذ ، على اختلاف انواعها .

على المرء ان يسعى الى الخير جهده ... وليس عليه ان تتم المقاصد

* * *

هذه هي حقوق العرب القومية ، والتاريخية ، والسياسية ، في فلسطين . تقوم اكبر حجة على صحة ملكيتهم لهذه البلاد ، وحقهم بالبقاء فيها ؛ يضاف اليها ايضاً ، الحق الراهن ، وهو وجود مليون عربي بالوقت الحاضر في فلسطين ، يعيشون فيها ثابتين مستقرين ، يؤلفون اكثرية سكان البلاد — مع التساهل باعتبار المهاجرين اليهود الذين استوطنوا فلسطين بعد الحرب الماضية من السكان الاصليين ايضاً — ويملكون ما لا يقل عن ثلثي مساحتها ؛ ويعملون بكل جد ونشاط في تنمية ثروتها ؛ وتحسين مرافقها العامة .

واذا جاز لاحد من ذوي الضمائر الحية والعقول الراجحة ، ان يتجاهل بعض الحقوق القديمة ، او يتجاوز عنها ، فهل يمكن بوجوه من الوجوه انكار حق مليون من

الانفس البشرية في الحيـاة ؟ والموافقـة على حرمانهم من وطنهم الاصيل ، الذي توارثوه اباً عن جد منذ نيف واربعة عشر قرناً ؟

ام هل يجهل الذين ينفخون ببوق الصهيونية المجرمة ، أن السماح لليهود بالهجرة الى فلسطين دون تقييد او تحديد ، وفتح ابواب هذه البلاد على مصاريعها بوجـه كل يهودي في العالم ، معناه حرمان عرب فلسطين من حق الحيـاة في وطنهم وارضهم ، وسلبهم كل نوع من انواع الحرية التي يتمتع بها البشر ؟

أجل ان الموافقة على المطاليب الصهيونية الجائرة ، وغير المشروعة ، والسماح لهم بحشد اي عدد يشاؤونه من شذاذهم وعمالهم في فلسطين ـ بعد ما اصبحت هذه البلاد تعجز عن استيعاب اي زيادة في السكان ـ بقصد مكاثرة العرب في العدد قبل كل شيء ، ثم الاستئثار بمرافق البلاد من دونهم ، ثم تـأسيس دولة يهودية مجرمة تقوم على اساس اغتصاب حقوق العرب ، معناه تغيـير لمجرى التاريخ في فلسطين ، واستهتار بالحقوق الانسانية ، وطعن لمبادئ الحرية والعدالة في الصميم ، ولا نخال مثل هذه البدع قابلة للتحقيق .

مصير فلسطين

وكيف يقرر في العالم الجديد

في وسط هذا الصراع العالمي الرهيب ؛ الذي غمر الكون من اقصاه الى اقصاه ، تشخص انظار الانسانية المعذبة المثخنة بالجراح ، نحو جنة السلام المنشود. ووراء الجبهات الحربية المحتدمة الاوار والمترامية الاطراف ، يعقد انصار الحرية وحماتها اجتماعات ومؤتمرات ؛ في سبيل وضع تصميم العالم الجديد . ومن وسط جحيم القنابل المتفجرة ، والحرائق المتأججة ، تنبثق خيوط المبادىء الانسانية الجديدة ، التي يعدها قادة الامم الحرة ، ليعيش العالم بموجبها في دنيا جديدة من السلام الدائم ، والعدالة الاجتماعية ، والحريات الصحيحة .

واذا كان العرب في طليعة الشعوب التي تترقب بزوغ هذا الفجر الجديد من العدالة والمساواة ، ليزول فيه ما لحقهم من الغبن في الماضي ، ويرفع عنهم ما يعانونه من الحيف والحرمان ، وكانوا يعدون العدة منذ الان ليتقدموا من بناة العالم الجديد بمطاليبهم الحقة وامانيهم المستوحاة من صميم الواقع ، فان قضية فلسطين - التي هي جزء من القضية العربية بالاصل ، تنال بحد ذاتها الدرجة الاولى من اهتمام « رواد العالم الجديد » ، وواضعي خطط السلام الدائم ، والعدل الشامل .

ولا غرو في ذلك ، فان اسم فلسطين التاريخي ، الذي له قيمته القدسية لدى جميع اتباع الديانات السماوية ، اصبح مقروناً منذ ربع قرن حتى الان ، بصدى الحوادث الجسيمة المثيرة . وهذه البلاد التي تؤلف بحكم موقعها الجغرافي ، حلقة اساسية تلتقي فيها معظم خطوط المواصلات التي تجمع اجزاء العالم بعضها مع بعض ، اصبحت مسرحا لصراع قومي عنيف ، لا يزداد مع الزمن الا تعقداً واتساعاً .

لكن من المؤسف حقاً ، ان تكون البرامج المهيأة لحل هذه القضية متعددة متباينة ، والخطط المفروضة لتقرير مصير هذه البلاد المنكودة الحظ ، متضاربة متنازعة ، والمطامع الاشعبية والاهواء الانانية ، لاتزال تحوم حولها من كل جانب .

فماذا يعد لها القدر ياترى ؟ وكيف يقرر مصيرها ؟ وما هي وجهات النظر المتضاربة حول هذا المصير .

الدعوى اليهودية

كانت مطامع اليهود في فلسطين ، ومسعاهم لانشاء وطن قومي صهيوني في هذه البلاد العربية ، السبب الاوحد لاثارة هذه المشكلة الدولية منذ الحرب العالمية الماضية . واذا حاولنا ان نقارن بين موقف الصهيونيين القديم من هذه القضية ، وموقفهم الحالي منها في الحرب الحاضرة ؛ فلا نكاد نرى ثمة خلافاً يذكر . اللهم سوى أنهم ازدادوا اليوم تطرفاً وتقحما ، ورفعوا عقيرتهم بالمطالبة باغتصاب هذه البلاد باية وسيلة ممكنة ، وخرجوا من دور الاستجداء ودعوي المسكنة والضعف لى دور التهديد والارهاب ، ودعوى القوة والعنف .

فالصهيونيون لا يعترفون لاحد غيرهم باي حق في هذه البلاد . ولا يتخلون عن فكرة تحويلها الى وطن قومي يهودي ؛ ويصرون على المطالبة بالغاء كل تدبير او تقرير ، يحول دون تحقيق مطامعهم الخرقاء هذه ؛ وفتح باب الهجرة الى فلسطين بوجه كل يهودي في العالم دون تقييد او تحديد . بصرف النظر عن قدرة البلاد على الاستيعاب ، او حقوق الشعب الاصيل ، او نوع اولئك المهاجرين المجهولين الذين يريدون شحنهم الى هذه البقعة الآمنة .

ولم يخرجوا في هذه الحرب عن سنتهم التقليدية ، بعقد مؤتمر دولي لهم كل سنة ، يستعرضون فيه شؤون اليهود في جميع انحاء العالم ، ويقررون الخطط الجديدة التي يريدون اتباعها . وقد كانت القضية الفلسطينية ، وتحقيق مشروع الوطن القومي ، مدار ابحاثهم الوحيد في تلك المؤتمرات التي عقدوها خلال سني الحرب الخمس ، وفي المؤتمر الاخير الذي عقدوه في شهر تشرين الثاني من هذا العام في واشنطون ، اتخذوا عدة مقررات هامة بهذا الصدد تتلخص بالبنود الاربعة التالية :

(١) اباحة الهجرة اليهودية الى فلسطين دون تقييد اوتحديد (٢) اعطاءاليهود الحق بشراء الاراضي في كل مكان من فلسطين (٣) الغاء الكتاب الابيض البريطاني (٤) الاعتراف بفلسطين كوطن قومي يهودي .

وقد حشد اليهود جميع قواهم في سبيل تأييد دعواهم الباطلة ؛ وتحقيق مطاليبهم غير المشروعة ، فراحوا يعمدون الى الضغط على الرأي العام الدولي من جهة ، كما اخذوا يقومون باعمال الارهاب الغادرة والاغتيالات الدنيئة من جهة أخرى . كانهم يريدون ان يقرروا مصير فلسطين حسب رأيهم واهوائهم ، ويستخدمون من أجل ذلك قوة اموالهم وانتشار دعايتهم في الخارج ، ثم دخان المسدسات والقنابل والمنظمات الارهابية في الداخل .

فالصهيونيون يسعون اذن في هذه الحرب الى الحصول على ضمانات دولية تؤيد دعواهم الباطلة في فلسطين ، كما يريدون ان يتخلصوا من كل قيد وضع قبل الحرب للحؤول دون تماديهم في باطلهم هذا ، وللمحافظة على روح العدالة الانسانية في معالجة القضية الفلسطينية ووضع حل نهائي مشروع لها. حتى اذا تحققت احلامهم هذه اثناء الحرب ، والعالم مغمور بآلامه وويلاته لا يستطيع الاهتمام بكل شاردة وواردة ، وثبوا بعد نهاية الحرب الى موائد السلام العتيدة ، يقررون مصير فلسطين كما يشاؤون ، استناداً لما يكونون قد حصلوا عليه من الوثائق الدولية بالخداع والتضليل ، وينشئون فيها « الدولة اليهودية المنتظرة » بعد تشريد عرب فلسطين من وطنهم الاصلي ، او تحويل من يستطيع البقاء منهم الى اقلية مستضعفة .

لكنه اذا كان من مصلحة اليهود فرضاً ، الاصرار على الباطل ، والمضي حتى النهاية في هذه المغامرة التي لم يتبينوا اي دليل للنجاح فيها قط ، فهل من مصلحة اية دولة من الدول العظمى المحبة للعدالة والسلام ، والتي خاضت غمار هذه الحرب الضروس في سبيل قمع روح العدوان والباطل ؛ ان تصغي الى مثل هذه الدعاوي الجائرة ، او تسكت عن مثل هذه المحاولات الاجرامية ، التي لا تنطبق مع المبادىء العادلة التي تبشر بها الامم المتحدة ، ولا تؤدي الا الى غرس بذور الشر والعداء ، وعناصر القلق والاضطراب في قلب العالم الجديد !! اذ لن يستقر سلام

في الشرق الاوسط على مثل هذا الاساس الفاسد ، ولن يسكت العرب عن انشاء دولة يهودية على اشلاء اخوانهم واطلال تاريخهم في فلسطين ، ولن ترضى الامم المحبة للسلام عن وجود جو دائم من التوتر والعداء في هذا الجزء من العالم ظهرت نتائجه المخوفة في الماضي بجلاء .

التدخل الاميركي

لم يكترث العرب كثيراً لاصرار اليهود على المجاهرة بدعواهم الباطلة ، لان هذه المطالب الصهيونية المستنكرة هي « شنشنة نعرفها من أخزم » ! لكن الامر الوحيد الذي حمل الرأي العام العربي على الايجاس والريبة حول مصير فلسطين ، هو أن حكومة الولايات المتحدة قد زجت بنفسها في مضمار هذا النزاع ، وراحت تتدخل في هذه المسألة الخطيرة المعقدة ، دون التعمق في دراسة اصولها ، والامعان في تقصي تشعباتها وذيولها ، حتى ادى بها الامر الى تبني وجهة النظر اليهودية بكاملها ، والمطالبة بفتح باب الهجرة الى فلسطين على مصراعيه ، والعمل على انشاء دولة يهودية ديمقراطية في تلك البلاد ، تكون ـ على حد تعبير بعض الساسة الاميركان ـ كما هي الدولة الاميركية للاميركان ، والبريطانية للبريطانيين !!

وليست هذه السياسة الاميركية الخاطئة ، مرتجلة ، او طارئة او مستوحاة من ظروف خاصة كما يحاول البعض تعليلها وتبريرها . بل يبدو أنها تزداد تمركزاً ورسوخاً مع الاسف الشديد ، ويكاد قسم منها ـ على الاقل ـ يصبح سياسة تقليدية لحكومة البيت الابيض . فقد شرعت الحكومة الاميركية بابداء عطفها على الحركة الصهيونية منذ زمن غير يسير ، وأخذ هذا العطف يزداد وضوحا خلال الحرب العالمية الراهنة ، كل ذلك دون مراعاة حقوق الغير في هذه المسألة ، ودراسة القضية من جميع نواحيها الحقوقية والسياسة ، والوقوف على وجهة النظر العربية ، قبل تبني مشروع اليهود الجائر .

واذ اردنا ان نستعرض تاريخ هذا « العطف » الاميركي المستنكر ، نراه يبدأ بالظهور جلياً رسمياً في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٤٢ . وكان ذلك بمناسبة

حلول الذكرى الخامسة والعشرين لوعد بلفور المشؤوم ، الذي اوشك ان تطوي صحيفته في ادراج التاريخ . اذ ظهرت حركة في مجلس الكونغرس الاميركي ، ترمي الى مطالبة حكومة الولايات المتحدة ، باصدار تصريح خاص من قبلها مماثل لوعد بلفور المشار اليه ، او تأييد ذلك التصريح السابق على الاقل ، وضمانة تحقيقه لمصلحة اليهود .

وازداد انصار هذه الحركة تمادياً فوضعوا عريضة بهذا المعنى ، وقعها جمهور كبير من اعضاء الكونغرس بينهم رؤساء حزبي الاقلية والاكثرية ، في مجلسي النواب والشيوخ ، ورئيسا لجنتي الشؤون الخارجية في المجلسين المذكورين ايضاً وعدد من الرؤساء والوزراء السابقين . وقد طلب موقعو هذه العريضة السوداء — التي رفعوها الى الرئيس روزفلت — ان تصدر الحكومة الاميركية تصريحاً رسمياً ، تضمن فيه تعزيز مشروع الوطن القومي الصهيوني في فلسطين ، وتمكين اليهود من انشاء دولة لهم في تلك البلاد .

قابل الرأي العام العربي نبأ هذا التدخل الاميركي في قضية فلسطين ، وتأييد الدعوى الصهيونية الباطلة ، بمنتهى الدهشة والاستغراب . لكنه ظن الامر سحابة صيف ثم تنجلي في البدء . الا انه لم يكد يمضي عام واحد على هذه الحركة المستهجنة ، حتى عقدت الجمعية الصهيونية العالمية ، اجتماعا سنوياً لها في نيويورك في اوائل شهر تشرين الثاني من عام ١٩٤٣ ؛ وبهذه المناسبة ظهر بعض الساسة الاميركيين على المسرح ، فادلوا ببيانات تؤيد الحركة الصهيونية ، ومطاليب اليهود بشأن فتح باب الهجرة اليهودية الى فلسطين دون قيد او شرط ، وكان في طليعة الذين جاهروا بهذا الرأي المستر صمنر ويلز ، وكيل وزارة الخارجية السابق ، ثم المرحوم المستر وندل ويلكي زعيم الحزب الجمهوري ، والمرشح الثاني لرئاسة الجمهورية الاميركية آنذاك . وقد اوضح المستر ويلكي يومئذ ، ان الهجرة اليهودية الى فلسطين يجب ان تجاري طاقة الشعب اليهودي وحاجته الى هذه الهجرة ، لا قدرة البلاد على الاستيعاب ...!!

مرت هذه التصريحات الجديدة بشيء من الهدوء النسبي ، ذلك لان العرب

اعتبروها آراء شخصية ؛ وانها تمثل اصحابها الذين صدرت عنهم ؛ ولا تمثل سياسة حكومة الولايات المتحدة الرسمية . لكن الرأي العام العربي ازداد تحفزاً تجاه الموضوع ، وحذراً من موقف الحكومة الاميركية .

ثم جاء عام ١٩٤٤ الحالي ، فظهر فيه نشاط الحكومة الاميركية لتعزيز الحركة الصهيونيـة باجلى مظاهره . ففي شهر آذار ـ الذي هو موعـد تنفيذ الكتـاب الابيض مبدئياً ـ هب اليهود يطالبون بالغاء هذه الوثيقة الدولية ؛ وبدأوا بحركتهم الارهابية الغادرة ، التي ظهر أنها مدبرة ، ومنظمة ، و كبيرة الخطر . فهب نفر من اعضاء الكونغرس الاميركي يؤيدون وجهـة نظر اليهود ، بدلا من ان يستنكروا اعمالهم الاجرامية ، ويطالبون بالغاء القيود التي فرضها الكتاب الابيض عليهم بشأن الهجرة الى فلسطين ، وحرية التملك فيها ؛ ويطلبون من الحكومة فتح باب المناقشة بهذا الموضوع ...!!

عند هذا ، ضج العـالم العربي بالسخط والاستنكار لهذا الموقف الذي يقفـه البرلمان الاميركي ؛ وراحت الصحف والاندية السياسية تسترسل في النقد والتعليق ؛ كما انهالت على البيت الابيض والكونغرس الاميركي ، سيول من برقيات الاحتجاج المرسلة من رؤساء الحكومات العربية ؛ الذين اشتركوا في هذه الغضبة جميعاً دون استثناء ؛ وانكر الرأي العـام العربي ، والحكومات العربية ، على هذا النفر من النواب والشيوخ الاميركيين حق التدخل بقضية فلسطين على هذا النحو ، وتأييد الحركة الصهيونية الجـائرة . وراحوا يرجون من الحكومة الاميركية العادلة الحرة ، عدم الاخذ برأي هؤلاء الجماعة ، والنظر لحقوق العرب ومطاليبهم القومية الحرة ايضاً ، قبل تكوين رأي حاسم بشأن مصير فلسطين .

وقد كان لهذه الغضبة العربية الشاملة صداها الخفاق في العالم الحر ، ونتائجها المستحسنة العاجلة ؛ اذ تبينت الحكومة الاميركية جلية الموقف . وتقـدم رئيس اركان حرب الجيش الاميركي بطلب رسمي الى الكونغرس يقول فيه : انه لايجب اثارة المناقشة في القضية الفلسطينيـة الان نظراً للمصلحـة العسكرية ، كما ان

الرئيس روزفلت آنذاك اوعز الى المجلسين بوجوب العدول عن اثارة هذه القضية . لكن صمت الساسة الاميركيين لم يطل كثيراً .....

في شهر تموز الماضي ، عندما احتدمت معركة انتخابات الرئاسة الاولى ، وتقدم المرشحان الرئيسيان الى المضمار ـ وهما روزفلت وديوي ـ اخذا بنشر برامجهما العتيدة التي تقربهما من الرأي العام ، وتعزز موقفهما لدى الناخبين ، فكان من كليهما ان وعد بفتح باب الهجرة اليهودية الى فلسطين ، والعمل على انشاء دولة يهودية بحتة في تلك البلاد . وكان تعليل هذه التصريحات ـ اوتبرير اصحابها على الاصح ـ القول بانها دعاية انتخابية ، لا سياسة حكومية . ثم قبيل المعركة الانتخابية الحاسمة بقليل ، أخذ نفر من رجالات الحكومة الاميركية المسؤولين ، يتبارون باصدار البيانات والتصريحات الرامية الى تعزيز المطالب الصهيونية . وكان بين هؤلاء وزير الحربية ، الذي ادعى ان الموقف الحربي الراهن لم يعد يحول دون السعي لارسال المهاجرين اليهود الى فلسطين . ثم وزير الداخلية الذي صرح بوجوب انشاء الدولة اليهودية في فلسطين و ... الى آخر ما هنالك ...!!

وكاد الرأي العام العربي يثور من جديد ازاء هذه البيانات . لكنه عاد فتعلل بالامل ، وراح يترقب نتائج الانتخابات التي افسحت مجالا واسعاً للدعايات المتنوعة ، ليرى خاتمة المصير . وعندما اسفرت هذه المعركة المرتقبة عن فوز الرئيس روزفلت للمرة الرابعة ، أخذ العرب يناشدونه ويناشدون دولته الحرة ، العدل والانصاف ، وعدم التفريط بصداقة العرب وحقوقهم .

وظل الموقف يتأرجح بين السلبية والايجابية ، والمد والجزر . اذ كادت الدعاية الصهيونية المضللة ، تسترسل في غلوائها ؛ وتسير الساسة الاميركيين مع اهوائها . ففي المؤتمر الدولي اليهودي الاخير الذي اشرنا اليه في مكان سابق من هذا الكتاب ، أذاعت اللجنة الصهيونية العليا نبأ تأليف « لجنة دائمة » للاشراف على تأمين ارسال المهاجرين اليهود الى فلسطين ، وادعت ايضاً ان تأليف هذه اللجنة كان بناء على طلب الرئيس روزفلت ، ونائبه المستر جيمس مكدونلد . ثم هبت من الكونغرس عاصفة جديدة ، وذلك بسبب اتخاذ لجنة الشؤون الخارجية

فيه ، قراراً يقضي بمطالبة فتح باب الهجرة اليهودية الى فلسطين !! وراحت تعد هذا القرار لعرضه على المجلس ، لاقراره وتبنيه .

لكن الحكومة الاميركية التي تحمل مشعل الحرية والعدالة في العالم الجديد ، ابت ان تدع هذه القضية تخرج عن حدود المنطق والعدل ، ولم تتأخر عن ان تقول كلمتها الصريحة في اللحظة الفاصلة . اذ طلب الرئيس روزفلت من اللجنة المذكورة وجوب العدول عن هذا القرار الارعن ، وتذرع في طلبه هذا بالصداقة الوثيقة التي تربط الولايات المتحدة مع البلاد العربية ، وما لحكومته من المصالح في هذه البلاد ايضاً . فكان أن عقدت لجنة الشؤون الخارجية اجتماعاً آخر على الفور ؛ حضره وكيل وزارة الخارجية ، ورضخت للحقيقة التي لا مجال لانكارها ، وضربت صفحاً عن الموضوع الخطر الذي حاولت اثارته من جديد .

ومهما يكن الامر ، فان في هذا الجو الغامض الذي يكتنف سياسة الولايات المتحدة ازاء القضية الفلسطينية ، ما يدعو الى القلق والحذر وما يستفز العرب الى السعي لدى هذه الامة الحرة ، لتحديد موقف حاسم ، مستوحى من مبادىء الحرية والعدالة ؛ التي كانت حكومة الولايات المتحدة اول من اشترط تقرير مصير الشعوب الصغيرة على اسسها .

اننا لا نريد ان نطلب من الساسة الاميركيين عدم التدخل في تقرير مصير فلسطين ، بدعوى ان هذه القضية لا تعنيهم . فالولايات المتحدة التي قررت الخروج عن سياسة العزلة ، وخاضت غمار هذه الحرب الضروس في سبيل نصرة الحرية في العالم ، من أولى الدول التي يحق لها البحث في القضايا الدولية المعقدة ، لحلها وفقاً لمبادىء العدالة والمساواة ، والاشتراك في تقرير مصير الشعوب الصغيرة ، لانها اتخذت ضمانة حرية هذه الشعوب وسلامتها ، دستوراً لسياستها ؛ في الحرب الماضية ، والحرب الحاضرة ايضاً .

لكننا نستنكر ان يأخذ الاميركيون القضية الفلسطينية من طرف واحد ، ويسعون لايجاد الحل المنشود لها من خلال زاوية ضيقة جداً لا تضم

مصالح جميع العناصر ذوي العلاقة فيها ، كما نكره ان يخدع الاميركيون بالدعاية الصهيونية المضللة ، فيعتبرون القضية الفلسطينية هي قضية الشعب اليهودي لوحده ...!!

وهل من المعقول ان يتجاهل الاميركيون حقوق العرب في فلسطين ، وقد كان زعماؤهم في الحرب الماضية اشد انصار القضية العربية عامة ، وكان الاستفتاء الذي قام به المستر كراين الاميركي في سورية وفلسطين عقيب الحرب الماضية يعطي اوضح صورة عن عروبة فلسطين وتمسك الشعب العربي قاطبة بهذا الجزء من الوطن .

ونحن لا ننكر على الاميركيين حق العطف على اليهود ، والسعي للتخفيف من آلامهم وويلاتهم . لكننا نأبى مطلقاً ان يكون هذا العطف بواسطة التجني على حقوقنا القومية . والتخفيف من آلامهم هم ، يجر على الشعب العربي من الآلام القومية والمآسي الانسانية ، ما يتضاءل خطب اليهود انفسهم امامه .

فالحرص على مصلحة اليهود ، والعمل لانصافهم بموجب مبادىء العالم الجديد ، الحرة العادلة ، لا يجب ان يكون على حساب العرب ، ولا ان يزكى بعمل عدواني جديد يتنافى مع تلك المبادىء نفسها ، فهو يتحقق باعادة المشردين منهم الى مواطنهم الاصلية ؛ وتحرير تلك الاوطان من حكم الطغيان العنصري ، والتسلط الاثيم ، والمبادىء الديكتاتورية الجائرة ، لا باغتصاب فلسطين العربية ؛ وتقديمها لقمة سائغة لهم ، وتمكينهم من حشد اكبر عدد يريدونه هم فيها من المهاجرين ، فينتزعوا لقمة العيش من فم الشعب العربي الاصيل ، ويزاحمونه على الماء والهواء ....

الموقف البريطاني

من البديهي ان نقول إن الحكومة البريطانية تعتبر شخصاً رئيسياً في القضية الفلسطينية ، وصاحبة الكلمة في تقرير مصير هذه البلاد من حيث الحق الدولي ، مع موافقة السكان الاصليين . فهي منتدبة على فلسطين منذ الحرب الماضية كما

هو معلوم . وهي مسؤولة عن حمايتها من كل اعتداء خارجي ، وعن صيانة الامن الداخلي فيها ، وعن تقدمها في مضمار الحضارة والتدرج في الحكم الذاتي ، ريثما يمكن انشاء حكومة وطنية في البلاد . فما هو موقفها ازاء هذه التيارات السياسية المتنوعة ، وما هو المصير الذي تعده ، او تعتقد بصلاحه لهذه البلاد !

اذا قلنا ان القضية الفلسطينية معقدة بطبيعتها ، فان الموقف البريطاني فيها بنوع خاص يصطبغ بنفس هذه الصبغة ايضاً . واذا كان ثمة صعوبة في تحديد الحل النهائي الحاسم لهذه القضية ، فان الحكومة البريطانية هي التي تواجه هذه الصعوبة بصورة مباشرة . ومنشأ هذه الصعوبة والتعقد في موقف الحكومة البريطانية ، هو أنها ارتبطت بالتزامات وتعهدات ازاء العرب واليهود ـ العنصران المتنازعان على ملكية فلسطين ـ منذ الحرب الماضية . وزادت على ذلك ان تسلمت مسؤولية الانتداب على هذه البلاد ، ورعاية مصالح الفريقين المتنازعين بآن واحد . فكان كل نزاع داخلي يعنيها بطبيعة الحال . ثم ان اي اقتراح كانت تتقدم به لحل هذه القضية على اساس الموازنة بين المصالح المتنازعة ـ حسب رأيها ـ الايلبث ان يستثير خصومة احد الفريقين لها بصورة مباشرة ، او كلاهما معاً في بعض الاحايين .

وليس لنا الان أن نعود الى استعراض التاريخ السياسي للقضية الفلسطينية من جديد ، لنرى صحة هذا القول ، لا سيما ونحن لا نبحث الان عن الماضي ، بل يهمنا معرفة المصير الذي ينتظر هذه البلاد المنكودة الحظ ، والحل النهائي الذي يمكن ان يقرر لها . كما يهمنا بهذا المقام بنوع خاص معرفة وجهة النظر البريطانية بهذا الموضوع .

من المعلوم ان الحل الاخير الذى اقترحته الحكومة البريطانية لمعضلة فلسطين ، هو مشروع « الكتاب الابيض » الذي وضع في سنة ١٩٣٩ ، اثر مؤتمرات لندن المشهورة ، وبعد الحوادث المشهورة التي ظلت فلسطين مسرحا لها طوالي ثلاثة اعوام تقريباً . وقد سبق لنا الكلام عن ذلك . واذا انينا الان لتناول ماهية هذا المشروع من الناحية الحقوقية ، نجد أنه لا يزال حتى الساعة آخر رأي

سياسي رسمي ، صدر عن الحكومة البريطانية بشأن قضية فلسطين ؛ اذ لم يطرأ عليه اي تبديل او تعديل قط ، ولم يصدر عن الدوائر المختصة في لندن والقدس ايضا اي تصريح او بيان يتنافى مع ذلك المشروع ، او يقتضي ايجاد تحوير فيه. لكنه مع ذلك لم يكتسب الصفة المبرمة بعد ، او بكلام آخر لم تنفذ بنوده عملياً ، الا انه من الممكن ان نلتمس من ظروف الحرب الراهنة معذرة لعدم اكتساب هذا المنهاج السياسي صفة التنفيذ . ونستطيع ان نقول ايضاً انه لا يزال ـ من الوجهة الحقوقية ـ هو الحل النهائي الذي تتبناه الحكومة البريطانية ؛ والذي تنوي ان تقرر مصير فلسطين بموجبه .

أما موقف العرب ، واليهود ، من هذا الحل ، فقد أوضحنا سابقاً انهم اتفقوا على عدم القبول به في البدء . الا أنه ظهر بعض التطور في موقف هذين الفريقين بالنسبة الى الكتاب الابيض ، او تقرير مصير فلسطين بموجبه . فاليهود ازدادوا اصراراً على رفضه ، وتمادياً في مقاومته الى درجة عمدوا معها الى استخدام وسائل العنف والارهاب ، مما لم يكن متوقعاً منهم قط ، ومما قوبل بكثير من الاستغراب والاستنكار ، حتى في الاوساط التي كانت تظهر بعض العطف عليهم وعلى قضيتهم ذلك لانهم يريدون بالواقع ان يحولوا فلسطين الى دولة يهودية بكل معنى الكلمة، ولا يرتضون دون هذا بشيء آخر .

أما العرب فان موقفهم كان على عكس اليهود . اذ تطور نحو الايجابية . مع العلم بانه لم يصدر بعد اي اعتراف رسمي بقبول مشروع الكتاب ابيض ، لا من الهيئات العربية في فلسطين ، ولا من المقامات الاخرى خارج فلسطين ايضاً . لكن استنكارهم لمطالبة اليهود بالغائه ، او تعديل بعض بنوده لمصلحتهم ، جاء دليلا على موافقتهم ضمنياً على هذا المشروع ، وعلى اعتبارهم اياه كخطوة مبدئية، لحل القضية الفلسطينية . على انه يوجد للعرب ثمة ملاحظات واقتراحات ، يطلبون تحقيقها قبل وضع هذا المشروع موضع التنفيذ الفعلي سنأتي على ايضاحها فيما بعد .

لكن هل نستطيع القول ان الكتاب الابيض هو الحل الوحيد والنهائي الذي اختارته الحكومة البريطانية للقضية الفلسطينية ؟ اننا لا نقدر ان نؤكد

هذا التخمين ، ولا ان ننفيه ايضاً . لكن الذي نستطيع ان نستنتجه من ماجريات الامور ان الحكومة البريطانية لا تزال تتبنى هذا المشروع حتى الان . وعدا ذلك ، فقد اصبحت مقتنعة ان القضية الفلسطينية ـ التي يريد الصهيونيون ان يعتبروها قضية الشعب اليهودي باسره ـ هي بالواقع جزء لا يتجزأ عن القضية العربية العامة ، وان مصير فلسطين النهائي مرتبط بمصير البلاد العربية برمتها .

واذا اردنا ان نستطلع موقف الحكومة البريطانية ازاء القضية العربية العامة ، نجد انه ازداد وضوحاً في الآونة الاخيرة . وازدادت هذه الحكومة تفهما لمطالب العرب الحقة ، وانتهجت سياسة صريحة ترمي الى تأييد استقلال كل قطر من الاقطار العربية بمفرده ، ثم تعزيز كل سعي لايجاد التقارب والتعاون بين هذه الاقطار الشقيقة .

أما موقفها من الحركة الصهيونية العامة ، فهي لا تزال بطبيعة الحال تعطف على العنصر اليهودي في العالم ، وتستنكر ما يلحق به من الاذى والاضطهاد في مختلف الدول الديكتاتورية ، وتشجب فكرة التفوق العنصري التي ابتدعتها النازية وحاولت تعميمها في اوروبا ، بغية الانتقام من اليهود وتشريدهم من اوطانهم المختلفة ، لكن حركة العنف الاخيرة التي قام بها الصهيونيون في فلسطين ، وما تبعها من اعمال الاجرام الدنيئة ، كانت مثار نقمة على مقترفيها ، وحملت كثيراً حتى من اصدقاء اليهود على النفور منهم والكره لهم . وتجلى ذلك بوضوح في الخطاب الاخير الذي القاه المستر تشرشل في مجلس العموم البريطاني ، تعليقاً على مصرع اللورد موين وزير الدولة البريطانية في الشرق الاوسط ، والذي قال فيه :

« ان هذه الجريمة المخزية قد هزت العالم ، ولم تكن اشد وقعاً على احد بقدر ما كانت على امثالي الذين ظلوا في العهود الماضية ثابتين على صداقتهم لليهود ، وكانوا من الذين يضعون الخطط لمستقبلهم على الدوام »

فاذا كانت احلامنا في الصهيونية قد تلاشت وزالت مع دخان مسدسات القتلة واذا كانت الجهود التي بذلناها في سبيل مستقبلها قد انتجت نوعاً جديداً من

عصابات القتلة لا تليق بهم الا المانيا النازية ، فينبغي على الكثيرين ممن هم على مثالي ان يعيدوا النظر في الموقف الذي ظللنا في الماضي محافظين عليه بمثل هذا الثبات خلال مدة طويلة . »

لكن رغم كل هذه الاتجاهات السياسية العامة ، فان الحكومة البريطانية تريد ان لا تتجاوز شيئا من حدود الواقع في تقرير مصير فلسطين ؛ بالنسبة لوضع هذه البلاد الراهن ، والمصالح المحلية المستقلة فيها . فهي مع اعتبارها فلسطين كعضو رئيسي في الاسرة العربية الكبرى التي تنتهج ازاءها سياسة صداقة وتعاون وثيق ، وتعتبر العرب عامة ، وعرب فلسطين خاصة «حلفاء نبلاء ، لا يطعنون احداً من ظهره» كما صرح بذلك مؤخراً اللورد غورت المندوب السامي البريطاني في فلسطين ، فهي ترى من واجبها صيانة حقوق اليهود الذين تمركزوا حالياً في فلسطين ، ودعوتهم الى المساهمة في تصريف جميع الشؤون العامة في البلاد ، بصفتهم مواطنين يتمتعون بجميع الحقوق المدنية والسياسية . وبتمركز العدد المفروض في الكتاب الابيض من اليهود في فلسطين ؛ الذي يشكل ثلث مجموع السكان تقريباً ، واشتراكهم في حقوق السيادة والتشريع ، حسب ذلك المشروع ايضاً . وانشاؤهم المدن الكبرى والمصانع العديدة فيها ، وامتلاكهم مساحات واسعة من الاراضي ، وحرية استثمارهم لما بايديهم من الاراضي والمؤسسات والممتلكات ، استثماراً تاما مطلقاً ؛ كل هذه الامور تحقق ما تعهدت به الحكومة البريطانية في صك الانتداب ووعد بلفور ، دون ان يتنافى ذلك مع مصلحة العرب ، بالنسبة للوضع الراهن .

وعلى كل حال ، فليس لنا ان نسترسل في التعليل والتقدير الى ابعد من هذا الحد ، لكننا نرى بوضوح أنه اذ حقق ما ورد في الكتاب الابيض بشأن تحديد الهجرة اليهودية الى فلسطين ، بحيث لا يتجاوز مجموع عددهم ثلث مجموع السكان العام ؛ واقتصر حق اليهود بالتملك على شراء الاراضي في المنطقة الساحلية المحددة لهم ، والتي تعتبر — ادارياً — منطقة يهودية بالواقع ، وانشئت حكومة محلية على هذه النسبة من السكان والملكية ، ثم اعطي للحكومة الفلسطينية العتيدة حق

الاشتراك مع سائر الدول العربية الشقيقة بالارتباطات والاتفاقات ، التي تمهد السبيل للاتحاد العربي المنشود ، فان هذا الحل يعتبر من الناحية الحقوقية الدولية ، حلا مرضياً ونسبياً . ويتوقف مصير فلسطين الحقيقي على الخطوات التي تليه فيما بعد .

العرب ومصير فلسطين

اذا كان مصير فلسطين مطروحاً على البحث منذ الان ، او انه سيطرح قريباً في مؤتمرات السلام المنتظرة ، فان المبادىء الديمقراطية الحقة ، ودستور رابطة الامم المتحدة ، وميثاق الاطلنطيك ، كلها تقضي بان يكون لسكان البلاد الاصليين الحق الاول في تقرير مصيرهم ، و كيان بلادهم السياسي ، وسكان فلسطين الاصليون هم هؤلاء المليون العربي ، الذين يستوطنون البلاد منذ اربعة عشر قرناً ، والذين توارثوها جيلا عن جيل خلال هذه الحقبة من الزمان ، ولا يزالون يؤلفون حتى اليوم الاكثرية الساحقة رغم سيول الهجرة اليهودية الحديثة

اما اذا اتسع نطاق هذه القضية ، واعتبر النزاع القائم بين العرب واليهود على ملكية فلسطين هو الامر الذي يقتضي البت فيه ، فان الشعوب العربية باسرها وعدد افرادها سبعون مليوناً ، يحق لهم جميعاً المساهمة في تقرير مصير هذا الجزء الحيوي الغالي من وطنهم الاكبر .

وليس في موقف العرب ازاء القضية الفلسطينية ـ مهما اختلفت اطوارها وآفاقها ـ اي لبس او غموض ، او محاباة او شطط ، فالعالم العربي باسره يشترط المحافظة على هذه البقعة المقدسة من الوطن العربي الاصيل ، ويستنكر انشاء دولة يهودية فيها كل الاستنكار ، ويقاوم هذه المحاولة بكل ما لديه من القوى ، وهو يتمسك ايضاً بوجوب المحافظة على استقلال جميع البلدان العربية ، والسعي للتأليف بينها ، في سبيل انشاء الدولة العربية الموحدة ، ويعتبر فلسطين بطبيعة الحال جزءا من هذه الدولة العتيدة ، لا يمكن التخلي عنه او انتقاص عروبته بوجه من الوجوه هذا هو المصير الذي يطلبه العرب لفلسطين ، والحل النهائي الذي ينشدونه لقضيتها .

ولندع المبادىء والاماني القومية ـ التي نتمسك بها عملياً بالطبع ـ على حدة في بحثنا الآن ، لنناقش مطالب العرب هذه من وجهة سياسية وحقوقية بحتة ، لنرى مقدار ما فيها من العدالة والانصاف ، ومدى انطباقها على الواقع والمبادىء الحرة التي يبشر بها العالم الجديد

ان مطالب العرب الاساسية في القضية الفلسطينية ، يمكن تحديدها بصورة مادية في النقاط التالية : (١) ايقاف الهجرة اليهودية الى البلاد (٢) منع اليهود من شراء الاراضي (٣) الغاء كل وعد او تصريح سابق ينص على السعي لانشاء وطن قومي لليهود في فلسطين ؛ او تأسيس دولة يهودية فيها (٤) وجوب انشاء حكومة عربية مستقلة في فلسطين ، واندماج البلاد في الوطن العربي الاكبر ، حسب الصورة التي تقرر لذلك. وها نحن نتناول كل بند من هذه المطاليب بالمناقشة والدرس المجرد.

الهجرة اليهودية : — يطالب العرب قبل كل شيء ، بوجوب ايقاف الهجرة اليهودية الى فلسطين ، وعدم القبول باي حل للقضية الفلسطينية لا يقوم على هذا الاساس . واذا أردنا اعتبار هذا الطلب من الناحية القومية ، نجده طبيعياً ومعقولا لان العرب هم ارباب البلاد الاصليين ؛ واصحاب حق السيادة الشرعية فيها ، ولا يسعهم ان يروا شعباً اجنبياً يقتحم عليهم بلادهم على صورة « مهاجرة » ليكاثرهم فيها عدداً ثم لينزع منهم زمام السيطرة عليها ؛ وعلى سائر مرافق الحياة العامة فيها .

أما اذا اخذنا هذا الطلب من الوجهة الواقعية والحقوقية المجردة ، نجد انه مشروع وضروري ايضاً . فالبلاد قد غصت بالسكان ، واصبحت منتجاتها الطبيعية غير كافية لسد حاجات من فيها بالوقت الحاضر . فهل من المعقول ان نسمح للمؤسسات الصهيونية القائمة خارج فلسطين ، ان تحمل اليها افواجا جديدة من المهاجرين المختلفي المشارب والجنسيات ، ليكونوا عالة على البلاد ، ولا يجدون ما يقوم أودهم فيها الا من فضلات صناديق تلك المؤسسات ، التي تشتري هؤلاء المهاجرين باموالها السوداء لاغراض سياسية معلومة ؟

مسألة الاراضي : ويطلب العرب من الحكومة المسؤولة عن تصريف الشؤون العامة في فلسطين ، ان تسن تشريعاً يقضي بمنع اليهود من شراء الاراضي . لقد كان هذا الطلب في البدء مبنياً على العوامل السياسية ؛ ومستوحى من المصلحة القومية ، اذ كان يرمي الى الحؤول دون اتساع الاستعمار الصهيوني في البلاد ، وعدم تمكين اليهود من توسيع سيطرتهم الفعلية فيها . لكنه اصبح الان مبنياً على الضرورة والحاجة الطبيعية ، ومستوحى من مصلحة البلاد العامة .

لقد انتقلت مساحات واسعة من الاراضي الى ايدي اليهود ؛ هي بالواقع خيرة الاراضي الزراعية في فلسطين . وكان انتقالها بوسائل متنوعة ، ليس هذا مقام تفصيلها ولا تحديد المسؤولين فيها . ولم يترك للعرب سوى مساحات ضئيلة من السهول الخصبة ؛ يضاف اليها المناطق الجبلية والرملية ، فيؤلف نسبة كبيرة من مساحة البلاد العامة بالاسم ، لكنها من حيث القابلية الانتاجية تصبح دون ذلك بكثير . لهذا لم يبق بايدي العرب من الثروة الزراعية ـ وسوادهم الاعظم من المزارعين ـ ما يكفي لسد حاجاتهم الطبيعية في الحياة ، ويؤمن لهم مستقبلا هانئا في وطنهم ، وقد شهدت بذلك تقارير الخبراء الفنيين البريطانيين التي اشرنا اليها آنفاً . فهل يمكن ان يسمح بانتقال مساحات جديدة من ايدي العرب في فلسطين ؛ لتعطى الى مهاجرين جدد لا تربطهم بهذه البلاد اية صلة قطعاً ؟ وهل يقر الضمير الدولي مبدأ تجويع سكان البلاد الاصليين في سبيل تشغيل جماعات من الشذاذ ، حملوا الى هذه البلاد حملا من اجل اغراض غير مشروعة بالاصل ؟

الدولة اليهودية : يتشبث العرب بوجوب اغلاق باب الهجرة الصهيونية الى فلسطين ، ليس بدافع نزعة الكراهية العنصرية لليهود ، بل خوفاً من ان تتحول جماعات هؤلاء المهاجرين اللاجئين ، الى شعب كامل ينتزع السيادة على البلاد ، ويجبر اهلها الاصليين ان يقوموا بهجرة عكسية هم بدورهم ، يفتشون لهم عن وطن جديد .... ويطالب العرب ايضا ان يمنع اليهود من مواصلة شراء الاراضي في فلسطين ، لابغية منع ابناء هذه الطائفة ـ الذين استطاعوا التمركز في البلاد حتى الان ـ من

التمتع بحرية الملكية الفردية وانماء الثروة الخاصة ، بل خوفاً من ان يتمكن هؤلاء بفضل ما يتمتعون به من القوة الشرائية ، وما يدعمهم من المؤسسات والجمعيات في الخارج ، من تملك هذه البلاد برمتها او بمعظمها ، فيغيرون اذ ذاك كيانها القومي والسياسي حسبما يشاؤون . وبكلام اوضح ، إن العرب يخشون من تحويل فلسطين الى « وطن » يهودي بالمعنى التام ؛ ومن انشاء دولة يهودية في البلاد ، وهذا ما يتشددون باستنكاره ؛ وبمقاومة كل محاولة ترمي الى تحقيقه والتمهيد له .

والعرب على حق في مطلبهم الرئيسي هذا بحكم الطبع . اذ كيف يمكن ان يتساهلوا في امر فصل جزء — كبيراً كان ام صغيراً — من وطنهم الاصلي ، ونزع سيادتهم عن ذلك الجزء ؛ لتنشأ فيه دولة اجنبية ، ويغرس فيه شعب غريب عنهم ! ام كيف يستطيعون أن يحتملوا رؤية الجماعات الصهيونية المتنوعة ؛ التي اتخذت فكرة العداء للعرب مبدأً اساسياً من مبادئها القومية ، تؤلف لها كياناً دولياً في قلب الوطن العربي !

ان قيام « دولة يهودية » في قلب العالم العربي ، بعد استحكام العداء بين العرب واليهود ، وبلوغه هذا المبلغ ، يعني وضع جمرة متوهجة على خزان من البارود . ومحاولة جمع الصهيونيين الشذاذ ، المتطرفين في ارائهم السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية — مع صرف النظر عن استهتارهم الاخلاقي — في بقعة هادئة من العالم مثل الجزيرة العربية ؛ معروفة بتمسكها بالمبادىء الروحية السامية ، ومحافظتها على الحياة المتزنة الاعتدالية ، هي بمثابة غرس جرثومة من المرض في جسم سليم ناقه ، ومناقضة واضحة للاسس التي ينوى ان يشاد عليها العالم الجديد ، لا تنتج الا الفوضى والاضطراب .

العرب والكتاب الابيض : اذا كان هذا هو الموقف السلبي الصريح الذي يقفه العرب من المطاليب الصهيونية ، ومن كل حل او محالة ترمي الى تقرير مصير فلسطين حسب رغائب اليهود هذه ، فما هو موقفهم من « الكتاب الابيض » الذي يعتبر آخر مشروع دولي رسمي ، عرضته الحكومة البريطانية لحل قضية فلسطين على اساسه ؟؟

لقد المعنا في عدة مواضع سبقت من هـذا البحث ، الى تطور موقف العرب ازاء الكتاب الابيض ، وحان لنا الان ان نقول الكلمة الاخيرة فيه بالنسبـة الى وجهة النظر العربية ، وباعتباره احدى المحاولات الرسمية لتقرير مصير فلسطين .

لم يأت « الكتاب الابيض » محققاً لرغائب العرب القومية فيما يتعلق بالقضيـة الفلسطينية ـ كما يتوهم البعض ـ مما جعلهم يهبون للدفاع عنه في الوقت الذي اشتدت معارضة اليهود له . ولم يصبح هو الحل المنشود الذي يسعى العرب لتحقيقه وتنفيذه ، إذ أن هذا المشروع يمنح الصهيونيين المستوطنين حالياً في فلسطين حق المساهمـة في السادة والتشريع ومشاطرة الحكم في البلاد ، لا بصفتهم رعايا الدولة الفلسطينية العتيدة ، بل بصفتهم القومية التي يطلبون اقرارها ، ثم فرضها على سائر البلاد فيما بعد ، وهذا مالم يقره العرب قط . ويبيح لليهود ايضاً حق شراء الاراضي في بعض المناطق من البلاد ، كما يجيز لهم الشراء ـ بعد موافقة الحكومـة الفلسطينية ـ في مناطق اخرى ، ولا يمنعهم من الشراء الا في الاقسام الداخليـة التي عجزت ايديهم ان تمتد اليها اصلا . وهذا ما لا يتفق ايضاً مع امنية العرب القصوى ، التي تطالب بمنع انتقال اي جزء من الاراضي في اية بقعة من فلسطين الى ايدي اليهود . ثم ان هذا المشروع يقر أساساً فصل فلسطـين عن سائر اجزاء الوطن العربي ، ويجعل مستقبلها السياسي والدولي قائما على اساس توازن دقيق حساس بين العرب واليهود ، مما يخشى معه على مستقبل العرب في فلسطين بالانهيار مع مرور الزمن . هـذه هي استدراكات صريحة على هذا المشروع لا مجال لاخفائها قط .

لكنه من الانصاف ان نقول ان مشروع « الكتاب الابيض » جاء مطـابقا لبعض المطاليب العربية في نقاط مختلفة . فهو يقول بتحـديد الهجرة اليهودية الى فلسطين ، تحديداً نهائياً . ويرمي بموجب هذا التحديد ـ الذي يستند على مقـدرة البلاد على الاستيعاب ـ الى جعل النسبة بين العرب واليهود من حيث العدد نسبة « ٢ » الى « ١ » ، كما يحدد مدى توسع الاستعمار الصهيوني الفعلي للبلاد عن طريق شراء الاراضي ـ ولو تحديداً جزئياً ـ وبالاجمال ، فان الروح التي صدر عنها هذا المشروع هي روح الموازنة بين وجهات النظر المتنازعة ، والانصاف بينهـا قـدر

المستطاع . والاساس الذي استند اليه الحل المقترح فيه ، هو اساس واقع الحال ووضع البلاد الراهن .

ولما كان اليهود لا يريدون الموازنة ولا الانصاف ، ولا يكتفون بالوضع الراهن الذي استطاعوا الوصول اليه في فلسطين ـ حتى دون رضاء العرب ـ وكانوا يعتبرون ان كل ما حققوه حتى الان ، ليس سوى تمهيد لمشروعهم الجهنمي الزائف ، ولا يرضون بالواقع بديلا عن تحويل فلسطين برمتها الى وطن قومي لهم ، وانشاء « الدولة اليهودية » المنشودة فيها ، لذلك ثاروا على مشروع « الكتاب الابيض » هذا ساخطين ناقمين كما هو معروف .

أما العرب ، الذين جبلوا على الوفاء ، وفطروا على نجدة الصديق ورعاية العهد ، فانهم قدروا للحكومة البريطانية صدقها واهتمامها في السعي لحل القضية الفلسطينية ؛ كما وثقوا بحسن النية الذي اظهرته ازاء القضية العربية العامة خلال الحرب الحاضرة لذلك اصبحوا اميل الى التفاهم والتعاون ، واتخذوا من النقاط الملائمة لوجهة نظرهم في الكتاب الابيض ، وسيلة لاعتباره حلا مبدئياً للقضية الفلسطينية المعقدة ، يمكن القبول به في سبيل الوصول الى تسوية نهائية حاسمة .

فلسطين والقضية العربية : تناولنا في الصفحات السابقة موقف العرب ازاء مصير فلسطين من النواحي السلبية من جهة ـ اي من حيث استنكارهم لما تبيته الحركة الصهيونية لها من المكائد ـ ثم من النواحي الحقوقية المجردة ، القائمة على اعتبار المسألة الفلسطينية قضية قائمة بنفسها . واثبتنا مع ذلك ، ان العرب لن يتهاونوا قط بشأن تقرير مصير هذا الجزء الغالي من وطنهم الاكبر ، ولن يرضوا بتغيير كيانه القومي والتاريخي ، اوبالاحرى لن يقروا اي تدبير يرمي الى تشويه عروبة فلسطين مهما اختلفت الاوضاع الحقوقية او الاعتبارات السياسية المتعلقة بهذه البلاد .

لكن هناك نقطة اخرى يتمسك بها العرب ايضاً ، ولا بد الا ان تراعى حتما لدى تقرير مصير هذا البلد العربي ، وهي أن العرب ، منذ ان بدأوا بحركتهم التحريرية في عهد الاصلاح العثماني ، حتى دور المطالبة بالانفصال عن الحكومة

العثمانية المركزية ، حتى اعلان الثورة العربية الكبرى في الحرب الماضية و حتى ادوار النضال السلبي بعد انتهاء الحرب واقرار نظام الانتداب والتجزئة ، وحتى الوقت الحاضر ايضاً » كانوا ولا يزالون يعتبرون أن هناك قضية عربية موحدة ، تستهدف تحرير سائر اجزاء الوطن العربي ، وازالة الحواجز المختلفة المتعددة التي تفصل بين قطر واخر والسعي بعد ذلك ـ حسب المراحل الممكنة ـ لايجاد الوحدة التامة التي تجعل من مختلف هذه الاقطار ، وطناً عربياً واحداً .

فاذا اخذنا هذا الامر بعين الاعتبار ، نجد أن قضية فلسطين ، مهما تنوعت الوانها ، وتشعبت اصولها ، لن تعدو كونها جزءا من القضية العربية العامة ، وان مصير فلسطين ، مهما اريد به ان يكون ، ومهما وضع له من البرامج التي تستند الى عوامل دولية خارجية مزعومة ، لا يمكن ان ينفصل عن المصير العام الذي يقرر للامة العربية باسرها ، والذي تسعى جميع الحكومات والشعوب العربية بالوقت الحاضر ، فيما تعقده من مؤتمرات وجمعيات ، ان تضع له الاسس العملية الحقيقية ، المستوحاة من جوهر القضية العربية ، وحقوق العرب المشروعة ، والتي تنطبق مع العهود الدولية العامة ، التي تعتبر دستوراً ثانياً لبناء العالم الجديد ، والعهود الخاصة الممنوحة للعرب قديماً وحديثاً .

ويتخذ اليهود انفسهم مثل هذا الموقف ازاء القضية الفلسطينية ايضاً . اذ انهم يعتبرونها قضية كل يهودي في العالم ، ويعتبرون مصير كل فرد منهم ، مهما كانت جنسيته او تابعيته ، مرتبط بمصير مشروع « الوطن القومي » الذي يحاولون انشاءه وتحقيقه باية وسيلة كانت . لهذا ليس بدعا اذا وقف العرب في الدفاع عن فلسطين صفاً واحداً ايضاً ، وليس غريباً ان يجعلوا مصير هذه البقعة الغالية من وطنهم الاكبر مرتبطاً بمصير سائر الاقطار العربية الاخرى ، فلا يقبلون بقيام دولة غير عربية فيها ، ولا يعترفون باي نظام سياسي يرمي الى تغيير صفتها القومية الصحيحة ، ولا يرضون بفصلها عن العالم العربي فصلا اداريا وجنسياً بصورة من الصور .

المصير العادل

بعد استعراض هذه التيارات السياسية المتعددة التي تتجاذب القضية الفلسطينية والوقوف على الاهواء والآراء والمطاليب المتباينة التي تتضارب حول تقرير المصير المنشود لهذه البلاد يتساءل الباحث عن الصورة التي يمكن ان تحل بها هذه المعضلة المعقدة ؛ والمصير العادل الذي يصح فرضه عليها بصورة حاسمة تتلاءم مع الواقع والحق والضمير الانساني .

وليس باستطاعتنا نحن الان ان ندعي افتراض ذلك الحل المنشود ، او الاسترسال في التكهن حوله . ذلك لاننا لا نملك مجال الحكم في مثل هذه القضية الخطيرة ، ولا نرغب في استثارة مثل هذه النقطة الحساسة . لكنه مع ذلك لا بد لنا من الخروج ببحثنا هذا الى نتيجة تقريبية تلقي نوراً ضئيلا على الاساس الذي يفترض أن ترتكز عليه حلول القضية الفلسطينية ، ويبنى عليه مصير هذه البلاد في العالم الجديد .

اذا اتخذنا فلسطين كوحدة سياسية او جغرافية مستقلة ، واعتبرنا ظروف البلاد الخاصة والعامة على ما هي عليه الان ، وضرورة مراعاة مصالح السكان الحاليين بعددهم الحاضر ، نجد أن هذه البلاد — كما يشهد وضعها الراهن ، وتؤكد تقارير الخبراء الفنيين التي اشرنا اليها من قبل — اصبحت تعجز عن استيعاب اية زيادة في السكان وتضيق دون اي برنامج يرمي الى التوسع الاستعماري الداخلي فيها ، ومثل هذه الحالة تجعل المطالبة بفتح ابواب فلسطين للهجرة اليهودية المطلقة عملا يتنافى مع وضع البلاد الراهن ، كما تجعل مشروع الوطن القومي اليهودي غير قابل للتحقيق . الا اذا افترضت الحركة الصهيونية الحديثة وجوب اخراج العرب من فلسطين ، ليفسحوا مجالا الى العدد الملائم من المهاجرين اليهود الذين يراد ادخالهم الى هذه البلاد بدلا عنهم ليجدد بناء مجد اسرائيل القديم على اكتافهم ! لكن مثل هذه العملية لا تقرها مبادىء العالم الجديد التي ستقوم على الحرية والعدالة ، وتأمين السلامة الاجتماعية لجميع شعوب الارض وافرادها من بني الانسان ايضاً .

لهذا لا مفر من اغلاق ابواب فلسطين في وجه الهجرة اليهودية ليتسنى لسكان البلاد الحاليين ، العيش على مواردها المحدودة . ثم لما كان العرب يؤلفون اكثرية هؤلاء السكان الحاليين ـ حسب الاحصاءات الرسمية ـ فلا مفر من وجوب انشاء حكومة محلية تتفق مع جنسية الاكثرية وتحمل طابعهم ؛ وتراعي مصالحهم ، مع ضمانة حقوق الاقلية السياسية والمدنية حسب النظم الديمقراطية بالطبع .

أما اذا ذهبنا الى اعتبار المسألة الفلسطينية أوسع افقا من الحدود الاقليمية ، واكثر تعقداً وتفرعا من كونها قضيـة محلية ـ وهذا هو الواقع بالفعل ـ نجـد أنفسنا امام قضية دولية سبق لنا ان اوضحنا ماهيتها في الصفحات الاولى من هـذا الكتاب . ونستطيع ان نصفها عند ذلك بانها مظهر لنزاع قومي عنيف بين شعبين كبيرين ـ هما العرب واليهود ـ وان كلا الفريقين يعلق مصيره القومي ، وتاريخه ، ومستقبله ، على المصير الذي يقرر لهذه القضية بالذات ، وهذا ما يفسح المجـال امام الدول الاجنبية للتدخل في هذه المسألة ، بالنظر لتشعب المصالح الدوليـة الحيوية المرتبطة باحد الفريقين المتنازعين او بكليهما معاً ايضاً . فعلى اي اساس يجب ان نبني الحل المنشود لهذه المعضلة الكبرى ، الذي يفترض فيه ان يكون عادلا .

ان اعتبار مصير الشعب اليهودي باسره مرتبط بمصير مشروع الوطن القومي المزعوم فى فلسطين ، هو دعوى عاطفية لا يؤيدها الواقع ، وحجة خيالية لاتقوم على اي اسـاس . ففكرة « الدولة اليهودية » التي يتشبث الصهيونيون بوجوب انشائها ليست شيئا حيوياً بالنسبة لسائر اليهود في العالم ، الا اذا انكر هؤلاء جميع جنسياتهم وقومياتهم التي ينتسبون اليها حاليا ، وهذه خيانة وعقوق للاوطان التي يعيشون فيها احراراً محترمين كما ذكرنا سابقاً ، وفلسطين على كل حال ليست كافية لتحقيق مثل هذه الخرافة ؛ بالنظر لضيق نطاقها وصغر مساحتها .

ومن جهة اخرى ، فان مصير اليهود في العالم الجديد ؛ وخلاصهم مما يحيق بهم من الاضطهاد والهوان والمحن التي تعرضوا لها في بعض الدول الفاشستية العاتية في اوروبا ، لا يعالج عن طريق منحهم ملجأ آمنا يستقرون فيه ، سيان كان هذا في فلسطين او سواها من بلدان العالم ، بل بتحقيق مبادىء الحرية والعدالة في كل

انحاء المعمور ، واستئصال جرثومة الشر والعدوان من مصادرها وهذا ما تصرح الامم المتحدة بوجوب الوصول اليه وتحقيقه في العالم الجديد ؛ ومتى تحقق هذا، فلن يبقى ثمة ضرورة لليهود للتفتيش عن ملجأ او مستقر ، ولن يعودوا يشكون الخوف من التشريد والاضطهاد ، ولهذه الاسباب يتضح جلياً ان مصير اليهود غير مرتبط بمصير فلسطين . كما يزعمون ، وان مستقبلهم الحقيقي في العالم غير منوط بتحقيق انشاء دولة يهودية لهم في هذه البلاد .

اما اذا اتينا لبحث مصير الامة العربية باسرها ، على ضوء القضية الفلسطينية ؛ نجد أن هناك تطابقاً تاماً . ففلسطين هي جزء طبيعي وحيوي من الوطن العربي الاصيل . والوطن كائن حي لا يمكن انتزاع اي جزء منه دون ان يمس بذلك سلامة هذا الكائن بمجموعه . والقضية العربية قضية واحدة لا يمكن التفريق بين فروعها البتة ، لكونها قضية شعب مسالم حر ، ادى في تاريخه القديم رسالة سامية للحضارة العالمية ، ولا يزال حتى الوقت الحاضر ذا مكانة عالمية لا تنكر ، وهو يسعى بكل قوته وامكانياته لجمع شمله من جديد ، وتبوء المركز اللائق به في العالم ، ومواصلة اداء رسالته الانشائية في سبيل الانسانية جمعاء . لهذا لا يمكن ان تخرج القضية الفلسطينية من نطاق القضية العربية العامة ، لمجرد ظهور هذا النزاع الطارىء ، الذي هو ناشيء عن جشع الصهيونيين ، ولا يعدو كونه محاولة عدوانية موجهة ضد الشعب العربي لا في فلسطين فقط ، بل في سائر اقطارهم وديارهم الاخرى ايضاً .

واذا اتينا لنبحث موقع فلسطين من الوطن العربي ، نجد انها تقوم فيه بمثابة سويداء القلب ، وتؤلف حجر الزاوية الذي لا غنى عنه لذلك البناء بكامله ، ولا يمكن ان تنشأ الدولة العربية الموحدة المنشودة في فترة ما من التاريخ ، اذا خرجت فلسطين من يد العرب . ولن ينال العرب حقهم من الاستقلال والحرية في هذا الوجود ، اذا انشئت دولة اجنبية معادية لهم في صميم وطنهم .

لهذا نجد أن مصير العرب قاطبة مرتبط بمصير فلسطين بالفعل ، وان القضاء على عروبة هذه البقعة الغالية ، لا يعني فقط القضاء على المليون من العرب الذين يعيشون فيها فحسب ، بل القضاء على مستقبل الشعب العربي باسره ، هذا الشعب

الذى ادى رسالته المجيدة في مختلف ادوار التاريخ ، والذي يثبت كفاءته للحياة الحرة بالوقت الحاضر ؛ واستعداده التام للمساهمة في صيانة ميراث الحضارة العالمية ومواصلة نموها ورقيها في المستقبل .

واذا أردنا ان نعتبر منزلة البلاد العربية في العالم الجديد ؛ على اساس موقعها الجغرافي الذي يجعلها حلقة اساسية في سلسلة المواصلات العالمية ، ومحطة رئيسية في أهم الخطوط التجارية على اختلاف انواعها ، ثم على اساس الثروات الطبيعية الزاخرة التي لا تزال مدفونة في احشائها ، والتي يحتاج العالم الى استثمارها منذ اليوم قبل الغد ؛ نجد أنه من الخير أن يظل الهدوء مسيطراً على هذه البلاد ، لا أن ينشأ فيها مصدر دائم للقلق والاضطراب .

فمن الضروري اذن ان تسعى الدول العظمى المحبة للحرية والسلام ؛ والتي تهتم بانشاء عالم الغد الافضل ، لصيانة عروبة فلسطين ، والمحافظة عليها ، وربط مصيرها بمصير الوطن العربي الكامل ، الذي تسعى جميع الدول والشعوب العربية لانشائه على اسس حرة ديمقراطية

نحن واليهود

امام محكمة الضمير الانساني

الآن ، وقد فرغنا من بحث القضية الفلسطينية من شتى نواحيها الحقوقية ، والسياسية ، والتاريخية ، وتلمسنا وجوه الرأي المختلفة التي تحوم حول تقرير مصيرها النهائي ، واوضحنا ما ينطبق منها مع الواقع ، والمنطق ، والوجدان الانساني ، نختم بحثنا هذا بمقارنة وجدانية صريحة بين دعوى اليهود وحقوق العرب في هذه القضية ، ونجعلها بمثابة دفاع نهائي نتقدم به امام محكمة الضمير الانساني ، التي يجب ان تقول الكلمة الفصل في الموضوع ، لا سيما والعالم باسره اليوم ، وهو في هذه

المحنة القاسية ، يلتمس لنفسه الخلاص على يد هذه المحكمة التي تسمى الدول العظمى المحبة للسلام الى سن دستورها المنشود ، وابرازها ماديا الى حيز الوجود .

ان اليهود في مسعاهم لتحويل فلسطين الى وطن قومي لهم ، ينشئون فيها دولتهم اليهودية المنشودة ، يريدون ان يثبتوا حقهم هذا بانتزاع حقوق الغير ، ويخلقون من العدم كيانا غير مشروع ، ويحملون الرأي العام الدولي على مساعدتهم في تحقيق بدعة غامضة بحقيقتها ، ومجهولة النتائج والغايات .

اما العرب في تشبثهم بصيانة عروبة فلسطين ، انما هم يؤيدون وضع البلاد الراهن ؛ ويحققون مبادىء الحرية الاساسية التي ترمي الى صيانة الشعوب الصغيره في اوطانها . هم بهذا يطلبون الاكتفاء بحقهم لا التجاوز على حقوق الغير .

وان اصرار الصهيونيين على المطالبة بفتح ابواب فلسطين في وجه المهاجرين اليهود ، حتى ولو بلغوا الملايين ، دون مراعاة ظروف البلاد الخاصة ومقدرتها على الاستيعاب ، لهو طلب شاذ بطبيعته ، ويتنافى مع الاسس التنظيمية التي سيبنى عليها العالم الجديد ، والتي ترمي الى تحقيق الاكتفاء الاقتصادي لكل بلد من بلدان العالم ، وتأمين الرفاهية والطمأنينة لسائر شعوب الارض ، ولن يتم هذا اذا وجدت هناك سياسة رعناء كسياسة الصهيونيين هذه ؛ ترمي الى الاستمرار في حمل افواج المهاجرين من شتى الاقطار والامصار ؛ وحشدهم في بقعة ضيقة محدودة الموارد ، تعجز عن تأمين كفايتهم و فاهيتهم ، لا لشيء الا من اجل تحقيق اهواء قومية وعنصرية لا تقوم بالواقع على اساس صحيح .

في حين أن العرب الذين يطلبون اغلاق ابواب فلسطين في وجه الصهيونيين ، يرمون من وراء ذلك الى تأمين حياة هادئة مطمئنة لسكان البلاد الحاليين ؛ بما فيهم مئات الالوف من اليهود الذين يستوطنونها حاليا ، ويتمتعون فيها بافضل انواع العيش .

أما مجاهرة الصهيونيين بوجوب احياء ميراثهم التاريخي في فلسطين ؛ واعادة بناء كيانهم القومي في تلك البلاد ؛ استناداً على حجة واهية ؛ هي حجة ظهور

مملكة يهودية في فلسطين ، في حقبة معينة من احقاب التاريخ ، فهذا طلب عدواني صريح مصدره الانانية وحب الاستئثار !

اذ ان هذا الميراث المزعوم لا يؤلف تاريخ فلسطين بكامله . ولغير اليهود في فلسطين آثار ومظاهر قومية يجب المحافظة عليها بحكم الطبع ، والتاريخ العربي هو الذي طبع فلسطين بطابعه الخالد بالواقع في القديم والحديث . في حين أن التاريخ العبراني لم يكن سوى حدث طاريء نسبياً .

ثم اذا جاء اليهود ليستثيروا عواطف العالم بان منهم آلاف المشردين والمضطهدين وان هؤلاء يعتبرون فلسطين ملجأهم الوحيد بوجود آثارهم الدينية المقدسة فيها ، فثمة في العالم ايضاً مئات الآلاف من المسيحيين المشردين والمضطهدين ، ولهم في فلسطين آثارهم الدينية المقدسة ، ويعتبرون هذه البلاد مهد دياناتهم الاصلي ، فلماذا لا يحملون جميعهم الى فلسطين اذن . كما يوجد ايضاً مئات الآلاف من المسلمين والمشردين ، وليس طبيعياً ان يحرم هؤلاء من حق اللجوء الى فلسطين ، وهي اولى القبلتين ، وثالث الحرمين ، ومحطة البراق المقدسة .

والحقيقة التي لا جدال فيها ، ان الحركة الصهيونية الرامية لامتلاك فلسطين والاستئثار بها ، هي حركة اعتدائية واستعمارية ، في حين ان الحركة العربية العامة ، التي ترمي الى المحافظة على فلسطين ضمن كيان الوطن العربي هي حركة تحريرية استقلالية ليس الا .

فاليهود الذين يريدون امتلاك فلسطين ، يسعون الى حرمان العرب من وطنهم الاصلي ، ويعملون على اخراج العرب من بلادهم ، ليحملوا اليها مهاجرين من مختلف الآفاق بدلا عنهم .

أما العرب ، مع مطالبتهم بمنع اليهود من دخول فلسطين ، ومقاومتهم لمشروع انشاء دولة يهودية في هذه البلاد ، لا يسعون الى اخراج اليهود من ديارهم ، ولا حرمانهم حق البقاء في اوطانهم الحقيقية . بل هم كشعب ديمقراطي ، يستنكرون كل اضطهاد يلحق باليهود ويريدون لهم الاستقرار التام في البلدان التي يستوطنونها ، والتمتع بالحرية المطلقة فيها .

وخاتمة القول ، ان قضية اليهود العامة ؛ هي قضية عالمية ، تنتهي الى تسوية عادلة مع انتهاء انظمة الطغيان العنصري والاستبداد ، وهذا ما تناضل الامم المتحدة في سبيل تحقيقه ، ومستقبلهم متعلق بمستقبل تلك البلدان التي حاول الطغاة اخراجهم منها ، لا بمستقبل فلسطين التي تعد بنسبة مصالحهم العالمية ورؤوس اموالهم الضخمة نقطة من بحر .

اما قضية العرب الاساسية ؛ فهي قضية قومية محدودة ؛ لا تنتهي الا بتحقيق سيادة العرب وحريتهم في سائر اقطارهم وضمن نطاق وطنهم العربي الاصلي الكامل ومستقبلهم مرتبط بمستقبل فلسطين بصورة مباشرة لانها هي حجر الزاوية في ذلك الوطن ، لا يمكن الاستغناء عنها بصورة من الصور .

فلينظر رواد العالم الجديد ، وبناة السلم الدائم والعدالة المطلقة ، وقضاة محكمة الضمير الانساني التي ستقول كلمتها الفاصلة عندما تتلاشى ضجة هذه الحرب الطاحنة ، الى جميع هذه الحقائق والاعتبارات .

انهم سينصفون اليهود حتما ؛ باعادة حرياتهم اليهم ، والقضاء على الانظمة الغاشمة التي كانوا هم في طليعة ضحاياها . لكنهم يجب ان ينصفوا العرب بنفس الوقت ، ولا يتسامحوا بجعلهم أول ضحية في العالم الجديد في سبيل ارضاء انانية الصهيونيين واحلامهم الطائشة .

وليكن الحكم في قضية فلسطين مستنداً الى روح الانصاف هذه ، باعتبارها هي بالاصل عربية بسكانها وجغرافيتها ، وباعتبارها جزءا حيويا من الوطن العربي لا غنى عنه البتة .

مجلة « العالمان »

هي لسان من ألسنة الحق والحرية

وراية من رايات العروبة الخفاقة

هدفها

تحقيق الوحدة في الدولة العربية الكبرى

فيها

كل ما يعبر عن الرغبات وما يفيد ويسلي

وكل جديد من عالم الشرق والغرب

يصدرها في دمشق

المحامي

احمد طلس

DS
126
.T3

JUN 30 1969

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU72892900
DS126 .T3
Filastin al-'Arabiya